

سلسلة المقالات والأوراق العلمية (14)

بيتُ العنكبوت

الظاهرة الشحرورية وأخواتها

تحرير وإشراف

د.محمد بن إبراهيم السعيدي
د.علي بن محمد العمران





بيت العنكبوت

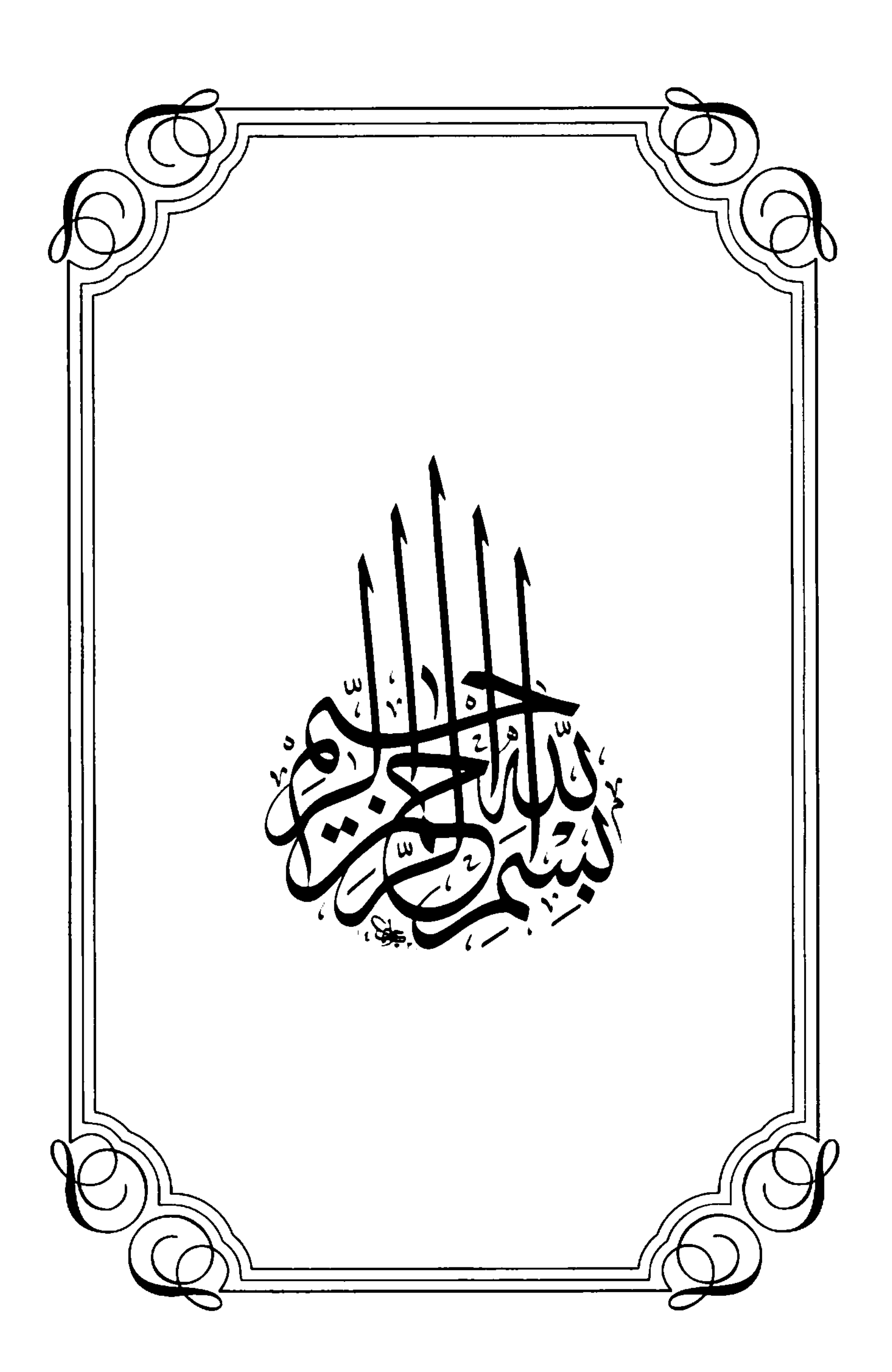
الظاهـرة الشحروريـة وأخواتهـا ..

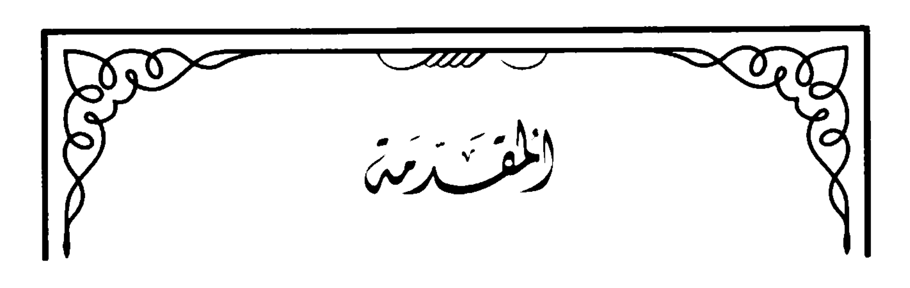
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
العمران ، علي
بيت العنكبوت الظاهرة الشحرورية وأخواتها/ علي العمران؛ محمد ابراهيم
السعيدي - مكة المكرمة ، ١٤٤٠هـ
١٦٤ ، ١٤x٢١سم
ردمك: ٩-٧-٩١١٦٤-٦٠٣-٩٧٨
١- الاستشراق والمستشرقون ٢- الاسلام - دفع مطاعن أ. السعيدي، محمد ابراهيم
(مؤلف مشارك) ب. العنوان
ديوي ٢٩٥,٣٠١ ١٤٤٠/٤٧٣٦

رقم الإيداع: ٤٧٣٦ / ١٤٤٠
ردمك: ٩-٧-٩١١٦٤-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الأولى
١٤٤٠هـ - ٢٠١٩م

دار سلف للنشر و التوزيع
المملكة العربية السعودية - مكة المكرمة
البريد الإلكتروني: salafcenter3@gmail.com
الهاتف: ٠١٢٥٣٠٦٣٨٨


بسم الله الرحمن الرحيم



المقدمة

يقول تعالى: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤١].

فقد ضربَ الله ﷻ المثَلَ ببيتِ العنكبوت لمن اتَّخذ من دون الله تعالىٰ أولياء؛ وذلك أن الوليَّ يبتغي به الإنسانُ القوةَ والحمايةَ والنصرة والصيانة والحفظ والرعاية والرزق والستر؛ وكلُّ ذلك لا يتحصَّل إلا بالولاية لله ﷻ، كما قال ﷻ: ﴿ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴾ [الكهف: ٤٣، ٤٤].

فبيت العنكبوت كما وصفه الباري سبحانه هو أوهنُ البيوت، أي: أشدُّها ضعفًا وسرعة تهالك وانهيار وقابلية للتحطيم.

وقد أصبح بيت العنكبوت من أمثالِ القرآنِ الكريم التي راجَت في حياة الناس وفي كتابات الأدباء، وألّف فيها بعض العلماء عددًا من التآليف.

ونحن إذ نجعله اليومَ عنوانًا لهذا الكتابِ فإناً نقصد به تلك الأدلَّة الواهية والتدبُّرات الرديئةَ التي جنحَ إليها بعضُ أدعياء العِلم في فهمِ كتاب الله تعالىٰ وسُنّة رسوله ﷺ.

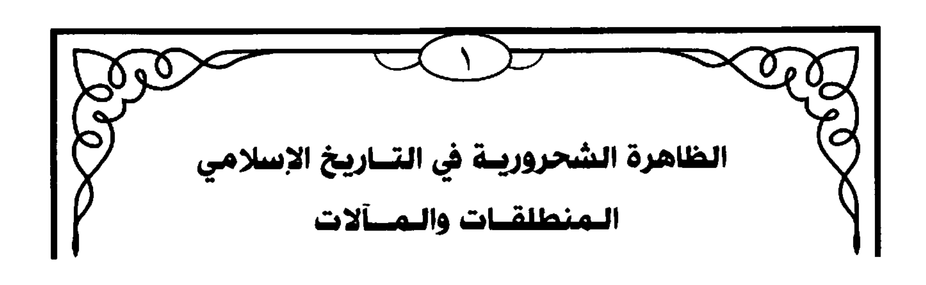
وشحرور في هذه الأيَّام ليس وحيدًا في مدرستِه، ولكنَّه أصبحَ ظاهرًا بما أَوْلته وسائلُ الإعلام من الاهتِمام.

وقد رأينا أن نُفردَ هذا الكتابَ لنقد هذه الظاهرة من خلاله، أو من خلال بعض ما يُطرَح منه ومن سواه؛ ونعلم أنَّ هذا الكتابَ ليس الأوَّلَ في نقدِ مسار هذا الرجل، فقد قيَّض الله عددًا من الباحثين ألّفوا في نقضِ خيوطِ بيته العنكبوتي، ولكننا نؤكد أن هذا الإسهامَ في الرد علىٰ هذه الظاهرة لها جوانبها المهمَّة التي سيلمسها القارئ بعون الله.

ونسأله تعالىٰ أن يجعلها من مُثقلات الموازين لمن كتبها ونشرها، والحمد لله ربِّ العالمين.

د. محمد بن إبراهيم السعيدي





بين الفينة والأخرىٰ يظهر في وسائل التواصل وغيرها مَن يدَّعي أنه يفسر القرآن بطريقة حديثة وعصرية، ويعيد فهم الثوابت والأصول بآليات جديدة، ويزعم أن الميراث في القرآن للذكر مثل الأنثىٰ سواء بسواء، وأن الصحابة ومن بعدهم حتىٰ يومنا هذا لم يفهموا الآية علىٰ الوجه الصحيح!!

- وأن الزكاة والصيام والجهاد غير متفق مع الفطرة الإنسانية والطبيعة البشرية!! فالشعائر الإسلامية مضادة للفطرة الإنسانية!!
- وأنه لا يمكن أن نفهم أي نص لغوي إلا علىٰ نحو يقتضيه العقل فقط!!
- وأن النساء التي أفردت لها سورة في القرآن ليس المقصود بها المرأة والأنثىٰ وإنما ما استجدَّ من الأشياء!!
- وأن الفجر الوارد في سورة الفجر هو الانفجار الكوني!!
- وأن الله تعالىٰ لا يعلم تفاصيل الأشياء وخفاياها، وإنما علمه علمٌ عامٌّ كلّيٌّ شمولي!! أو رياضي بحت!! كما يحلو له أن يعبِّر.

- وأن حد السرقة هو كفّ يده عن المجتمع بسجنه!!
- وأن الإنسان تطوّر عبر مراحل كثيرة حتىٰ وصل إلىٰ قالبه الحالي!!
- وأن العورة هو ما استتر خِلقة، أي: ما كان بين العورة!! فلا تحتاج المرأة للبس شيء حتىٰ تستر نفسها فضلًا عن العباءة، فضلًا عن غطاء الرأس، فضلًا عن غطاء الوجه!!

وغيرها من الضلالات التي لا يحتاج العاقل معها إلا إلىٰ وضع علامات التعجب فحسب.

قل لي بربك: ماذا لو ادعىٰ أحد أن الجاذبية التي اكتشفها نيوتن يقصد بها الانجذاب العاطفي الذي يحصل بين الفتاة والفتىٰ، لا ما يذكره الفيزيائيون المتخصصون!!

أو نحتاج في الردّ علىٰ هذه التفاهة إلىٰ أكثر من وضع علامات التعجب؟!

الحقيقة أن تتبع ضلالات هذا الرجل ولا شك تُدخل الإنسان في دوامة لا مخرجَ منها، ووحل نتن الماء خبيث الطينة، وتُغرقه في خبائث تأويلاته الباطنية بما لا يستطيع الخلاص منه.

ولا أدري مَن هذا العاقل الذي يأخذ دينه ويعير عقله ويفهم لغة القرآن من رجل لا يُحسن التحدث باللغة القرآنية!! وكثيرًا ما يخطئ في قراءته للقرآن ويتعتع فيه!!

والحمد لله ونحن في القرن الخامس عشر بعد هجرة النبي ﷺ ما زال دين الله محفوظًا، فكتابه محفوظ، وسنة نبيه ﷺ محفوظة، وكلام العلماء فيهما منقول، سواء في الأحكام أو الأخبار، وسواء في المسائل أو الدلائل، وصدق الله: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩].

فإن قلت: ليس هذا موضوع حديثنا، فأقول لك: بل هو هو.

التاريخ الشحروري:

إن أول شيء ورد بخاطري حين رأيت هذا الرجل هم الزنادقة الذين ابتليت بهم الأمة على مدى قرونها المنصرمة، فهذا النوع من تلاعب الجهلة بكلام الله وكلام رسوله ﷺ قد مر على تاريخ الأمة منه نماذج وصور، ولنا فيها مواعظ وعبر، ودعني أستعرض لك شيئا من ذلك التاريخ الشحروري؛ فإن الاعتبار بالمنطلقات والمآلات منهج قرآني نبويّ.

ولعلي أخبرك أنني في هذه الورقة سأترك الحديث للتاريخ دون أن أستأثر بالكلام فيه، فلننظر إلى التاريخ المعاصر أو القريب، هل كان فيه من أوصى باستحداث أمثال شحرور من النماذج وتغذيتها وإحيائها؛ ليتجلّى لنا الشقُّ الأول من البحث.

أساتذة شحرور:

يعلم الباحثون أن هناك من أكّد على ضرورة زعزعة ثوابت الإسلام وقواطع أدلّته والدَّكِّ في صحة فهم الصحابة وحجيته والتشكيك في موثوقية علماء الإسلام.

يقول المستشرق (جون تاكلي): "يجب أن يستخدم كتابهم -وهو أمضىٰ سلاح في الإسلام- ضد الإسلام نفسه؛ لنقضي عليه تماما. يجب أن نري هؤلاء الناس أن الصحيح في القرآن ليس جديدًا، وأن الجديد فيه ليس صحيحًا"(١).

ويقول المبشر الأمريكي (جب): "إن الإسلام مبنيّ علىٰ الأحاديث أكثر مما هو مبني علىٰ القرآن الكريم، ولكننا إذا حذفنا الأحاديث الكاذبة لم يبق من الإسلام شيء، وصار شبه صبيرة طومسون، وطومسون هذا رجل أمريكي، جاء إلىٰ لبنان فقدمت له صبيرة فحاول أن ينقيها من البذر، فلما نقىٰ منها كل بذرها لم يبق في يده منها شيء"(٢).

ويقول (بنروز): "إن المبشِّرين يمكن أن يكونوا قد خابوا في هدفهم المباشر، وهو تنصير المسلمين جماعات جماعات، إلا أنهم قد أحدثوا بينهم آثار نهضة" إلىٰ أن قال: "ولقد برهن التعليم علىٰ أنه أثمن الوسائل التي استطاع المبشرون أن يلجؤوا إليها في سعيهم لتنصير سورية ولبنان"(٣).

أظن أن عقلك قد ارتوىٰ وقناعتك قد عرفت ما قصدت، ولكني سأزيدك بالذي دفع المستشرقين أنفسهم إلىٰ تبنِّي أمثال هذه المشاريع.

---

(١) ينظر: التبشير والاستعمار د. مصطفىٰ خالد ود. عمر فروخ (ص: ٤٠).
(٢) ينظر: التبشير والاستعمار د. مصطفىٰ خالد ود. عمر فروخ (ص: ٤٠).
(٣) ينظر: التبشير والاستعمار د. مصطفىٰ خالد ود. عمر فروخ (ص: ٤٥).

لقد باء المشروع التبشيري التنصيري بالفشل، وتناثرت جهودهم أدراج الرياح، وهو ما يعترفون به رغمًا عن أنوفهم، فقد اعترفوا بأن التبشير الرسمي واكتساب المسلمين إلىٰ صفوف النصرانية قد خاب.

ومن أجل ذلك قنع هؤلاء المبشرون أن يكون عملهم "الإنساني" قاصرًا علىٰ زعزعة عقيدة المسلمين والتشكيك في الثوابت والقواطع الشرعية[1]؛ ولذا اندفع المستشرقون إلىٰ هذا المنحىٰ، وكان أول مستشرق قام بمحاولة التشكيك في السنة ومسائلها هو اليهودي (جولد تسيهر) الذي يعده المستشرقون أستاذهم في السنة، يقول عنه (بفانموللر): "وبالأحرىٰ كان (جولد تسيهر) يعتبر القسم الأعظم من الحديث بمثابة نتيجة لتطور الإسلام الديني والتاريخي والاجتماعي في القرن الأول والثاني، فالحديث بالنسبة له لا يعد وثيقة لتاريخ الإسلام في عهده الأول: عهد طفولته، وإنما هو أثر من آثار الجهود التي ظهرت في المجتمع الإسلامي في عصور المراحل الناضجة لتطور الإسلام"[2].

وبعدها توالت توصيات أعداء الإسلام علىٰ ضرورة إظهار هؤلاء علىٰ أنهم هم الإسلام الصحيح، وأهمية إتاحة المنابر لهم.

---

(١) ينظر: التبشير والاستعمار د. مصطفىٰ خالد ود. عمر فروخ (ص: ٤٦) بتصرف يسير.

(٢) ينظر: كتابات أعداء الإسلام ومناقشتها عماد السيد محمد الشربيني (ص: ١٢٥، بترقيم الشاملة آليا).

والعجب كل العجب أنَّ من يتزعَّم اللبراليَّة أو التنويرية والعقلنة اليوم لم يخرجوا عن هذا النصّ، وإنما كان شغلهم الشاغل شرحه، ثمّ تفصيله، ثم وضع الحواشي له، ثم اختصاره فحسب!! وإن شئت فاعتبر قولهم وقارنه بقول هؤلاء، فلا أدلَّ على استقائهم من لعاعة أفكارهم من أن أدعياء بني جلدتنا كثيرًا ما يباركون المشروع الاعتزالي، وهو ما أرضعهم إياه معلِّموهم، فقد بارك (جولد تسيهر) المشروع الاعتزالي كذلك، ولكن فيم كانت المباركة تلك؟!

إنه يرى أن وجهتهم في رد الأحاديث بالعقل هي الوجهة الصحيحة التي يجب أن تناصَر وتؤيَّد ضد المتشدّدين الحرفيّين الجامدين على النصوص[١].

بالله عليك أيها القارئ الكريم، أليس هذا بنصه هو ما نسمعه من هؤلاء الأدعياء أمثال شحرور ومن معه؟! أبَعدَ هذا يحتاج العقل إلى بيان؟!

ولكن دعنا هنا نأخذ إطلالة على المعتزلة، وكيف كانوا مع الثوابت ومع النصوص القرآنية؛ ليظهر شيئًا مما يقصدون.

كان الإمام عبد العزيز الكناني في حوار مع بشر المريسي وهو من أوائل من تبنَّى الاعتزال والقول بخلق القرآن، فلما عرض عليه الكناني كلام الله وكلام رسوله وأقوال السلف في المسألة ذهب يقول: "يا أمير

---

(١) ينظر: كتابات أعداء الإسلام ومناقشتها عماد السيد محمد الشربيني (ص: ١٢٥، بترقيم الشاملة آليا).

المؤمنين أطال الله بقاك، إنه يحب أن يخطب ويهذي بما لا أعقله، ولا أسمعه، ولا ألتفت إليه، ولا أتىٰ بحجة، ولا أقبل من هذا شيئًا".

فاستنكر عليه الإمام الكناني -*رحمه الله تعالى*- ادِّعاءه العلم مع عدم علمه بقول الله وقول رسوله وبفهم السَّلف والعلماء رضوان الله عليهم، فقال *رحمه الله تعالى*: "فقلت: يا أمير المؤمنين أطال الله بقاك، من لا يعقل عن الله ما خاطب به نبيه ﷺ، وما علمه لعباده المؤمنين في كتابه، ولا يعلم ما أراد الله بكلامه وقوله، يدَّعي العلم، ويحتج بالمقالات والمذاهب، ويدعو الناس إلىٰ البدع والضلالات؟!".

ولكن المبتدع تمادىٰ في غيِّه، وادَّعىٰ أنه يفهم النُّصوص كفهم الإمام الكناني *رحمه الله تعالى* فقال: "أنا وأنت في هذا سواء، أنت تنتزع بآيات من القرآن لا تعلم تفسيرها ولا تأويلها، وأنا أرد ذلك وأدفعه، حتىٰ تأتي بشيء أفهمه وأعقله".

فجلّىٰ الإمام له الفرقان بين من فهم القرآن والسنة بفهم السلف وبين من لم يفهم، وقال: "يا أمير المؤمنين، قد سمعت كلام بشر وتسويته فيما بيني وبينه، ولقد فرق الله فيما بيني وبينه، وأخبر أنا علىٰ غير السواء.

قال أمير المؤمنين: وأين ذلك لك من كتاب الله ﷻ؟

قلت: قال الله ﷻ: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الرعد: ١٩]، فأنا والله -يا أمير المؤمنين- أعلم أن

الذي أُنزل عليه ﷺ هو الحق، وأومن به، وبشرٌ يشهد على نفسه أنه لا يعلم ذلك ولا يعقله ولا يقبله، ولا هو مما يقوم لي به عليه حجة، فلم يقل كما قال الله ﷻ، ولا كما علَّم نبيَّه ﷺ أن يقوله، ولا كما قال موسىٰ عليه السلام، ولا كما قالت الملائكة، ولا كما قال المؤمنون، ولا كما قال أهل الكتاب، ولقد أخبر الله ﷻ عن جهله، وأزال عنه التذكرة، وأخرجه عن جملة أولى الألباب"[١].

وجاء دورك هنا -أيها القارئ الفطن- لتنظر في حال هذا المبتدع وحال أدعياء التنوير والتحرّر اليوم، لتقارن وتقايس: هل اختلف الحال عن مراد أعداء الإسلام؟! فإن لم يختلف، فالمراد هو المراد، والمآل هو المآل.

نهايات الشحرورية:

تفكَّر -أخي القارئ- في حال أولئك، مَن منهم نصره الله ورفع قدره؟! ومن منهم أذلَّه الله ودحض فكره؟! أوَكان المعرضون عن كتاب الله وسنة نبيِّه وفهم صحابته والسلف هم المنتصرون؟! تفكَّر في هذا واعتبر، واختر لنفسك ما تشاء.

واسأل نفسك: أين هم أولئك الزنادقة المعرضون عن كلام الله وكلام رسوله ﷺ وفهم الصحابة والسلف؟! وأين فكرهم وأثرهم ودينهم الذي اخترعوه؟! لقد مرَّ علىٰ تاريخ الأمة الإسلامية زنادقة ودجاجلة من أمثال دجاجلة هذا العصر ممن يتقوَّل علىٰ الله بلا علم،

---

(١) الحيدة والاعتذار للكناني (ص: ٤٢).

ويطلق العنان لفكره ورأيه أن يتكلم في القرآن بما يهوىٰ!!

فهذا مسيلمة الكذَّاب ادعىٰ بأنه مرسل من عند الله تعالىٰ، وزعم أنه يعرف الوحي وتصله ألفاظه ومعانيه، كما يوحىٰ إلىٰ النبي محمد بن عبد الله ﷺ.

فماذا كانت النهاية؟! وماذا كان الدافع؟!

فأما الدافع فيظهر من طلبه هو وقومه أن يجعل الأمر لهم من بعده، فما هو إلا الحقد علىٰ دين الإسلام، فما كان من النبي ﷺ إلا أن رفض وقال له: «لو سألتني هذا القضيب -وكان بيده- ما أعطيتكه، وإني لأراك الذي رأيت فيه ما رأيت»[١].

وما كانت له حيلة لدعواه تلك إلا دعوىٰ فهم قول النبي ﷺ علىٰ حقيقته، وتأويله تأويلًا يتفق وهواه، حيث قال عنه النبي ﷺ: «ليس بشركم مكانًا يحفظ ضيعة أصحابه»، فقيل ذلك لمسيلمة، فقال: عرف أن الأمر إليَّ من بعده!! فلما عادوا إلىٰ ديارهم ادَّعىٰ النبوة[٢].

ولكن ماذا كانت النتيجة؟!

لقد عرفت العرب والعجم والعالم أجمع أنه مسيلمة (الكذاب)، فما يكاد يذكر اسمه إلا والكذب رديفه!! والخزي والعار أنيسه!! أليس في هذا عبرة لمعتبر؟!

---

(١) أخرجه البخاري (٤٣٧٨).

(٢) ينظر: تاريخ الطبري (٣/ ١٣٨) والبداية والنهاية، ط. هجر (٧/ ٢٥٥).

بل وزاد الأمر سوءًا أنه أضحك البشرية بوحيه الذي أوحاه إليه شيطانه، وما زال الصغار والكبار يتضاحكون علىٰ قرآنه الذي افتراه، وحُق لنا أن نتفكَّه قليلًا ونضحك أيضًا بما يهذي، فمنه: "يا ضفدع بنت الضفدعين، نقي كم تنقين، لا الماء تكدرين، ولا الشارب تمنعين، رأسك في الماء وذنبك في الطين"، ومنه: "يا وبر يا وبر، إنما أنت أذنان وصدر، وسائرك حقر نقر".

ولقد سأل عمرَو بن العاص عن رأيه في وحيه هذا، فقال عمرو: (والله، إنك لتعلم أني أعلم إنك لتكذب)(١).

قد تقول لك نفسك بأن هذا كافر معترف بكفره، ولكني أوردته لتشابه منطلقاته ومآلاته مع من نتحدث عنه.

إن مآلات الملاحدة والزنادقة منذ العصر الأول وخيمة ونهاياتهم أليمة، فأحيانًا يهلكهم الله بعذاب من عنده، وأحيانًا يحجم شرَّهم بأيدي المؤمنين، وتارة يستدرجهم حتىٰ يعذِّبهم العذاب الأليم.

لم تكد تجفّ مآقي الصحابة من دموع حزنهم علىٰ وفاة النبي ﷺ حتىٰ فزعت قلوبهم من بليَّة أمثال هؤلاء الزنادقة، فقوم ارتدُّوا صراحة عن دين الله، وقوم تبعوا مسيلمة الكذاب هذا، وقومٌ صوَّبوا سهام تأويلهم نحو ركن من أركان الإسلام، فامتنعوا عن أداء الزكاة، وتأوَّلوا نصوصها، واستدلوا بقوله تعالىٰ: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣]؛ مدَّعين أن الله أمر النبي ﷺ خاصَّة دون غيره

(١) ينظر: البداية والنهاية، ط. هجر (٩/ ٤٧٣).

بأخذ الزكاة! و"ردُّوا على الله قوله تعالىٰ: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة: ٤٣]، وردُّوا علىٰ جميع الصحابة الذين شهدوا التنزيل وعرفوا التأويل في قوله ﷻ: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣]"(١).

فدحض الله تعالىٰ شرّ هؤلاء علىٰ يد أبي بكر رضي الله عنه، ولم يعد لهم ذكر في التاريخ إلا هذه الذكرىٰ السيئة القبيحة.

ومثلهم حال من كان يتتبَّع المتشابهات من النصوص في زمن عمر، فجلده ونفاه رضي الله عنه، قال عمر رضي الله عنه: "سيكون أقوام يجادلونكم بمتشابه القرآن، فخذوهم بالسنن؛ فإن أصحاب السنن أعلم بكتاب الله تعالىٰ"(٢).

وكذلك الزنديق عبد الله بن سبأ، فتن المسلمين بأفعاله وأقواله، وقامت معه الغوغاء، وألَّهوا عليًّا(٣)، فماذا كانت النتيجة؟! وما حال أتباعه؟! أبادهم الله علىٰ يد عليٍّ بن أبي طالب، وما زال الخزي والعار يلحقهم كلما قرأنا تاريخهم.

وذاك معبد الجهني وتلميذه الدمشقي غيلان، أعرضا عن فهم الصحابة، وادَّعيا الاستقلال بفهم النصوص، وعظَّما نصوص الثواب والجزاء دون النَّظر إلىٰ النصوص المثبتة لشمول قدرة الله وعموم

(١) الاستذكار لابن عبد البر (٣/ ٢١٤).

(٢) الشريعة للآجري (١/ ٤٨٣)، الإبانة الكبرىٰ لابن بطة (٢/ ٦٠٩).

(٣) الشريعة للآجري (٥/ ٢٥٢٠)، التنبيه والرد للملطي (ص: ١٨).

قضائه علىٰ كلّ أحد، ولما امتحن الإمام عمر بن عبد العزيز غيلان الدمشقي جعل يستدل بقول الله ﷻ: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝١ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ١-٣]، فقال له عمر: اقرأ آخر السورة: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝٣٠ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا﴾ [الإنسان: ٣٠، ٣١]، فأظهر التوبة، ولما مات عمر بن عبد العزيز عاد إلىٰ ما كان عليه[١].

ولكن كيف كانت نهايتهما؟! وحالهما عند المسلمين؟!

لقد فتنا المسلمين بفكرهم ذلك، وضلت شرذمة منهم بضلالاته، ولكنهما بقيا ممجوجين ممقوتين عند عامَّة أهل الإسلام، يقول الإمام العكبري: حدثنا ابن عون قال: "أدركت البصرة وما بها أحد يقول هذا القول إلا رجلان ما لهما ثالث: معبد الجهني، وسيسويه، قال ابن عون: وكان محقورا ذليلا، وهذه القدرية والمعتزلة كذبوا علىٰ الحسن ونحلوه ما لم يكن من قوله، قد قاعدنا الحسن وسمعنا مقالته، ولو علمنا أن أمرهم يصير إلىٰ هذا لواثبناهم عند الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وليكونَنَّ لأمرهم هذا غب، وإني لأظن عامة من أهل البصرة إنما يصرف عنهم النصر لما فيهم من القدرية"[٢].

---

(١) الإبانة الكبرىٰ لابن بطة (٤/ ٢٣٦).

(٢) الإبانة الكبرىٰ لابن بطة (٤/ ٢٩٩)، وينظر: سير أعلام النبلاء، ط. الرسالة (٤/ ١٨٧).

ولا ننسىٰ أن هذين هما قطبا المعتزلة، التي يضفي عليها شحرور مسحة العقلانية والفكر.

والمشهد ذاته يتكرر مع الجعد والجهم أصل المذهب الجهمي المعروف، والذي أعرض عما في نصوص الوحي وعمَّا فهمه الصحابة، ولوَّث فكره بالأفكار الدخيلة، ورد ما أخبر الله به في القرآن من أن الله كلم موسىٰ تكليمًا واتخذ إبراهيم خليلًا، ونفىٰ عن الله ﷻ ما أثبته لنفسه، وتبنَّىٰ القول بالجبر، وانتهىٰ أمره بنقمة المسلمين عليه، واستحسانهم عقابه علىٰ ما افترىٰ، وردعه عمَّا ابتدع[١].

ومن الزنادقة من غلا وأبعد حتىٰ ادَّعىٰ الألوهية سواء لنفسه أو لمن كان مثله من البشر؛ كأبي الخطاب الأسدي رأس الخطابية[٢].

فأين هؤلاء الزنادقة والدجاجلة اليوم؟! وأين أتباعهم والمفتونون بهم؟!

أين الزنديق عبد الكريم بن أبي العوجاء وضلالاته وموضوعاته[٣]؟! وأين الزنادقة داود بن روح بن حاتم وإسماعيل بن سليمان بن مجالد ومحمد بن طيفور[٤]؟!

---

(١) ينظر: الرد علىٰ الجهمية للدارمي (ص: ٢١)، الشريعة للآجري (٣/ ١١٢٢).

(٢) ينظر: الملل والنحل (١/ ١٧٩).

(٣) ينظر: الفرق بين الفرق (ص: ٢٥٥).

(٤) ينظر: تاريخ الطبري (٨/ ١٦٣).

بل أين الزنادقة من أبناء الوزراء والكبراء والوجهاء كعبد الله بن أبي عبيد الله الوزير(١)؟! وأين الزنديق ابن داود بن علي بن عبد الله بن عباس الهاشمي رضي الله عن ابن عباس وأبيه؟! وأين يعقوب بن الفضل بن عبد الرحمن بن عباس الحارثي الهاشمي(٢)؟!

وأين الزنديق الثقفي الذي ظهر في مصر، والرويس الذي ظهر بدمشق، والكردي وابن الهيثمي وتوما الراهب وإبراهيم المقصاتي وعثمان الدقاق؟!

ومن الشَّحارير في العهد العثماني: لطفي التوقاني والقابض العجمي وحمزة البوسني.

لقد ذهب كل هؤلاء، وبقي دين الله محفوظًا بحفظ الله، ذهب كل هؤلاء وبقي كتاب الله شامخًا مرفوعًا برعاية الله، درست أفكارهم وزندقاتهم، وبقيت السنة النبوية المطهَّرة محفوظة على ما فهمه صفوة الخلق وصحابة النبي ﷺ.

﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [الرعد: ١٧].

---

(١) ينظر: تاريخ الطبري (٨/ ١٦٣).

(٢) ينظر: تاريخ الطبري (٨/ ١٩٠).

الفكر الباطن: أستاذ آخر لشحرور:

وقبل الختام أنبه إلىٰ أن محمد شحرور وإن كان يبارك الاعتزال ويحاول أن يستتر بغطائه، إلا أنه لو عاش بين المعتزلة لاستعاذوا بالله منه وأعلنوا البراءة من زندقاته، ولحكموا بضلاله وانحرافه؛ ذلك أنه وإن كان يتظاهر بالاعتزال إلا أنه ينتهج الفكر الباطني في أطروحاته وتفسيراته، ويتعامل مع الوحي كما تعامل الباطنية.

ولكي يبرز لك الفكر الباطني دعني -أخي القارئ- أستعرض لك هنا شيئًا من تعامل الباطنية مع الوحي؛ تتضح لك الحقيقة:

فالباطنية لم يسلم من تأويلهم أصول الدين ولا فروعه كما هو الحال مع شحرور تمامًا، فالجنة عندهم هي نعيم الدنيا!! والعذاب الوارد في الوحي هو ما يكدُّ فيه أصحاب الشرائع من الصلاة والحج والجهاد!! والعالم قديم، والرسل مجرد دهاة مكّارون مخادعون للشعوب طلبًا للرئاسة!! والملائكة هم الدعاة إلىٰ بدعتهم!! والشياطين هم من خالفهم!! والصلاة هي موالاة إمامهم!! والحج زيارته وإدمان خدمته!! والصوم الإمساك عن إفشاء سره دون الإمساك عن الطعام والشراب وسائر المفطرات!! ومن عرف معنىٰ العبادة سقط عنه فرضها!! وتأوّلوا في ذلك قوله: ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾ [الحجر: ٩٩](١).

---

(١) ينظر: الفرق بين الفرق (ص: ٢٧٨وما بعدها)، والإسماعيلية لإحسان إلهي ظهير (ص: ٥٠١).

وإن أردت العجب فاسمع ما جاء في إحدىٰ رسائلهم الشهيرة: "وما العجب من شيء كالعجب من رجل يدَّعي العقل ثم يكون له أخت أو بنت حسناء وليست له زوجة في حسنها، فيحرّمها علىٰ نفسه ويُنكِحها من أجنبي، ولو عقل الجاهل لعلم أنه أحقّ بأخته وبنته من الأجنبيّ، ما وجه ذلك إلا أن صاحبهم حرَّم عليهم الطيبات، وخوَّفهم بغائب لا يعقل، وهو الإله الذىٰ يزعمونه، وأخبرهم بكون ما لا يرونه أبدا من البعث من القبور والحساب والجنة والنار، حتىٰ استعبدهم بذلك عاجلا"[1].

إن الطَّرق علىٰ بوابة الشهوة والغريزة الجنسية والدّقّ في مسائلها هو ديدن الزنادقة وهجيراهم في كل زمان، فبعضهم اكتفىٰ باستباحة الزنىٰ، ومنهم من استباح نكاح بنات البنين وبنات البنات وبنات بنات الأخوة وبنات بني الأخوة بدعوىٰ أن الله حرم البنات وبنات الأخوة وبنات الأخوات فقط[2]!! ومنهم من استباح المحارم عامّة واعتلّوا بقول الله ﷻ: ﴿ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَـٰثًا ﴾ [الشورىٰ: ٥٠][3]!!

بل إن منهم من زعم أن اللواط أفضل من نكاح النساء!! واعتلوا بأنه أسلم من الحَبَل والولادة ومَؤُونة النكاح والشكوىٰ إلىٰ القاضي وفرض النفقة والحبس علىٰ الحقوق، وربما اعتلّوا بأن جماع النساء

(١) ينظر: الفرق بين الفرق (ص: ٢٨١).

(٢) ينظر: مقالات الإسلاميين، ت. ريتر (ص: ٩٥).

(٣) ينظر: فرق الشيعة، للنوبختي (ص: ٨٤).

يأخذ من القوة أكثر مما يأخذ جماع الصبيان؛ لأن الفرج يجذب من القوة والماء أكثر مما يجذب المحلّ الآخر بحكم الطبيعة[1]، نعوذ بالله من الخبث والخبائث.

إذن الطّرق على بوابة الشهوة والدّقّ في مسائل الجنس والغرائز هو ديدن الزنادقة وهجيراهم في كل زمان، والآن إن شئت فانظر في أطروحات محمد شحرور تجدها امتلأت غيظًا من الحجاب وتحريم الفواحش.

وكذلك باب الحدود -سواء حد السرقة أو غيره- كانت محلّ تشكيك ودجل من الزنادقة منذ الزمن الأول، وما قصة المعرِّي عنا ببعيد، والذي قال فيه أبياته:

تناقض ما لنا إلا السكوت له ... وأن نعوذ بمولانا من النار

يد بخمس مئين عسجد فديت ... ما بالها قطعت في ربع دينار؟!

فرد عليه أهل العلم والفضل بقولهم:

يد بخمس مئين عسجد ... لكنها قطعت في ربع دينار

حماية الدم أغلاها وأرخصها ... خيانة المال فانظر حكمة الباري[2]

ودائمًا ما تجد هؤلاء الزنادقة يشوِّهون صورة أهل السنة بوصمهم بأبشع الصفات، يقول الإسفراييني عن الباطنية: "وكما أن

(١) ينظر: إغاثة اللهفان لابن القيم (٢/ ٨٦٩).

(٢) ينظر: البداية والنهاية، ط. هجر (١٥/ ٧٤٦).

الباطنية احتالوا في أصول الدين احتالوا في اختداع أتباعهم واستمالة قلوبهم، فأباحوا لهم جملة اللذات والشهوات، وأباحوا لهم نكاح البنات... وقالوا: إن الشياطين هم الذين لا يكونون علىٰ مذهبهم من المسلمين من علماء أصحاب الحديث والرأي، وكانوا يسمّون موافقيهم علىٰ بدعهم: المؤمنين، ومخالفيهم: الحمير والظاهرية"[١].

ويا سبحان الله! لم يخرج أدعياء العقلنة والتنوير عمّا وصمت به الباطنية أهل السنة وأهل الحديث، بل هي هي ذات السبَّة في كل زمن، ينسبون إليهم البلادة والتخلف والجمود والحرفية والظاهرية!! ويستأثرون باسم العقل والعقلانية والفكر والفهم والعبقرية!!

ولا أدري من أيّ مَتجرٍ اشترىٰ محمد شحرور عقله الذي لم يصنع مثله قط!! لا في زمن النبي ﷺ، ولا في زمن الصحابة، ولا في زمن تابعيهم ولا أتباعهم، ولا في كل القرون السابقة حتىٰ جاءنا محمد شحرور بعد أربعة عشر قرنًا من الزمان ليفهم الوحي أو القرآن علىٰ وجهه الصحيح!!

لعله يخيَّل إليه أن الأخبار الإلهية والتشريعات الربانية مثلها مثل النظريات الهندسية والافتراضات الرياضية، تنقض اليوم ما بنته بالأمس، ويبطل في الحاضر ما كان حقًّا في الماضي، فهل الوحي الإلهي كالافتراضات الرياضية والهندسة البشرية؟! هيهات هيهات.

---

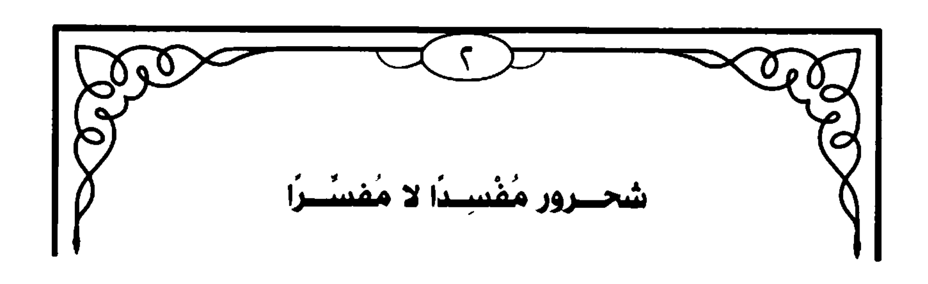
(١) التبصير في الدين، للإسفراييني (ص: ١٤٢).

وبعد أن استعرضنا تاريخ الظاهرة الشحرورية أو الزنادقة، ورأينا منطلقاتهم ومآلاتهم، هنا يتفقد العاقل تلك الأساليب والصفات، ويقارنها ويقايسها بأساليب وصفات الزنادقة المعاصرين، ويحكِّم عقله؛ ليعلم المفسد من المصلح، ويعلم حال أتباعهم والمنصتين لهم، وليتبين له الحق، فإن الحق واضح أبلج والباطل لجلج.

فقد كان الزنادقة معظَّمين في نفوس أتباعهم، واعتبروهم مجدِّدين ومفكّرين، ولكن كل ذلك ذهب أدراج الرياح وبقي دين الله محفوظًا، ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖ﴾ [الشورى: ١٥][1].



(١) إعداد: عمار بن محمد الأركاني.



٢

شحرور مُفْسِدًا لا مُفسِّرًا

كل مطَّلِع على العلوم الإسلامية يعلم أن العلماء قد وضعوا قيودًا وذكروا شروطًا للمفسِّر، بين مقلٍّ ومستكثر؛ صيانة من العبث في فهم كلام الله وتفسيره على غير الوجه الذي أراده الله تعالى، ومن أهم تلك الشروط:

١) صحّة الاعتقاد وسلامة المنهج.

٢) نزاهة المقصد والتجرّد عن الهوى.

٣) العلم بطرق تفسير القرآن: فالقرآن يفسَّر بالقرآن، وبالسنَّة النبوية، وبأقوال الصحابة والتابعين، واعتبار دلالة اللغة.

٤) العلم بالعربية، وبما يتّصل بالقرآن ممّا له الأثر في فهمه[1].

وقد وُفق السلف الأوائل أيما توفيق في فهم كلام الله، وفهم مراده؛ إذ كانوا يملكون أدوات التفسير، فَصَحَّتْ فُهُومُهُم كما صَحَّ مُرادُهم، يقول ابن القيم: "صحة الفهم وحسن القصد من أعظم نعم الله التي

---

(١) انظر في شروط المفسر: الإتقان للسيوطي (٤/ ٢٠٠-٢٣٠)، المنار في علوم القرآن، د. محمد الحسن (٢٥٠-٢٥٩)، بل لا يخلو كتاب من كتب علوم القرآن من التعرض لأبواب لها علاقة بالمفسِّر وشروطه.

أنعم بها على عبده، بل ما أعطي عبد عطاء بعد الإسلام أفضل ولا أجل منهما، بل هما ساقا الإسلام، وقيامه عليهما، وبهما يأمن العبد طريق المغضوب عليهم الذين فسد قصدهم، وطريق الضالين الذين فسدت فهومهم"[١].

أما سوء الفهم عن الله ورسوله فهو أصل كل بدعة وضلالة نشأت في الإسلام، بل هو أصل كل خطأ في الأصول والفروع، ولا سيما إن أضيف إليه سوء القصد[٢].

وفي تاريخنا الإسلامي نجد انحرافات كثيرة في مناهج التفسير؛ فهناك الاتجاه الرافضي، وهناك الاتجاه الصوفي، وفي عصرنا الحاضر ظهر الاتجاه العقلاني المتأثر بالمعتزلة، واتجاه الخوارج في التفسير، بل وصل الحال إلى ظهور اتجاه منحرف يردِّد ما يقوله المستشرقون، واقتفى أصحاب هذا الاتجاه آثارهم وتأثروا بشبههم، دون سير على منهج واضح، بل هو التلفيق ليس إلا. فما أبأسه من طريق! وما أضله من سبيل!

لقد أدرك أعداء الإسلام من المستشرقين وغيرهم أن المسلمين لن يقبلوا أخذ دينهم وتفسير كلام ربهم منهم؛ لذا قاموا بتسليم الراية لبعض تلاميذهم أو المتأثرين بهم من المسلمين أو ممن يحملون أسماء المسلمين.

---

(١) أعلام الموقعين (٢/ ١٦٤).

(٢) ينظر: الروح (١/ ١٨٣-١٨٤).

ولما كان القرآن الكريم كتاب الله المحفوظ لم يجدوا طريقًا لتزييف كلماته أو تغيير حروفه، إلا أنهم وجدوا أسهل طريق لإضلال المسلمين -في نظرهم- وهو: تحريف المعنىٰ؛ فابتدعوا من المعاني والفهوم ما لم يخطر علىٰ بال أهل القرون المفضَّلة كلها؛ بدعوىٰ: (القراءة المعاصرة للنصوص)، وما أشبه عملهم في التحريف بما فعله اليهود الذين يتأوّلون آيات الله علىٰ غير تأويلها، ويفسِّرونها بغير مراد الله ﷻ؛ بغيًا منهم وافتراء.

وأيضًا: نجد أنّ هؤلاء الذين خاضوا في القراءة المعاصرة للنّصوص ممّن يحمل هذا الفكر والتجديد ليس لديه آلة المفسِّر لكي يفسر القرآن الكريم كاملًا؛ لذا نجدهم يفسرون آياتٍ من القرآن؛ ليُلَبِّسُوا علىٰ الناس دينهم، أما لو قاموا بتأليف تفسير كامل؛ ففضيحتهم حينها سيعرفها القاصي والداني.

وأيضًا: هم يستهدفون من خلال الآيات التي ينتقونها الأمور التي يعترض عليها الغرب علىٰ الإسلام، مثل: الرق، والحجاب، وتحريم الخمر والخنزير، وإقامة الحدود كحد السرقة وحدّ الحرابة، كما يحاولون التشكيك في أصول الإسلام ومصادره؛ مثل التشكيك في ثبوت القرآن وقراءاته وجمْعه، والتشكيك في السُّنة بحجة أنها تعرضت للوضع[1].

(١) انظر: الاتجاه اللغوي المنحرف في التفسير في العصر الحاضر، عبد الله إبراهيم المغلاج. رسالة دكتوراه - جامعة أم درمان الإسلامية.

وأمر آخر: لا نكاد نجدهم يسمون الكتب التي أوردت تلك الفهوم السقيمة لآيات الله باسم (تفسير القرآن). وهذا لا يعني أنهم لم يمارسوا التفسير، فالعبرة بمضمون تلك الكتب وبيان ضلالاتها، حتىٰ يكون الناس علىٰ بينة منها.

ولكي ينجح هذا المشروع المعاصر في التضليل كان لا بد من إيجاد حلّ لبعض الإشكالات؛ حتىٰ لا يصطدم صلاحية النصوص الشرعية لكل زمان ومكان بهذا التفسير المعاصر غير المراد سلفًا في زمن التنزيل؛ فمن بين تلك الحلول:

القول بـ"تاريخية النص": وهي نظرية أسسها المستشرقون كوسيلة لقطع الصلة بين القرآن الكريم والواقع المعاصر، وادعاء بأنه لا يمكن تطبيق أحكامه علىٰ واقعنا اليوم.

وكذا الموقف من السُّنَّة باعتبارها مفسرة للقرآن، فإما أن يدَّعوا الاكتفاء بالقرآن وحده، أو يسلبوا منها العصمة وينفوا كونها وحيًا، أو يدَّعوا عدم ثبوتها، أو يزعموا مخالفتها للعقل والحس، أو مخالفتها للقرآن، أو معارضتها للنصوص الأخرىٰ، أو مصادمتها للقيم والأخلاق، أو يقولوا بتاريخيَّتها كما قالوا في القرآن، فالقاسم المشترك بينهم هو: الانتقاص من السنة المشرفة[1].

---

(١) ينظر للتوسع:

١- الاتجاه العلماني المعاصر في دراسة السنة النبوية دراسة نقدية، غازي محمود الشمري، دار النوادر. =

ويمكن تلخيص أغراض هؤلاء المنتقصين من النصوص الشرعية في عصرنا هذا في أهداف ثلاثة:

أولها: "أَنْسَنَة" كلام الله ووحيه برفع صفة "القداسة" عنه، ومن ثم فتح الباب للتصويب والتخطئة فيه، والأخذ منه والرد والاستدراك عليه، شأنَ كل ما هو "بشري" لا يتصف بـ "الكمال المطلق".. تمركزًا حول "الذات"، وتنحيةً "للإله" جانبًا.

وثانيها: رفع صفة كونه "وحيًا ورد من عالم الغيب"، واعتباره "منتجًا بشريًّا" و"إفرازًا طبيعيًّا" للعصر الذي ظهر فيه، ومن ثم فتح الباب للقول بتاريخيته وعدم صلاحيته لكل زمان ومكان، شأنَ كل ما هو "مادي" "غير متجاوز".. تمركزًا حول "المادة"، وتنحيةً "للغيب" جانبًا.

وثالثها: رفع صفات "المعيارية" و"القيمية" و"الأخلاقية" التي تميزه بنفي "الحكمة" و"الغائية" و"الاتساق المنطقي" عنه، ومن ثم فتح الباب للقول بنسبيته؛ لتُطِلَّ "العبثية" برأسها تبعًا لذلك؛ شأنَ كل ما هو "سائل" و"زئبقي" يمكن إعادة تشكيله حسب الطلب.. تمركزًا حول "الدنيا" وتنحية "للآخرة" جانبًا[1].

= ٢- الاتجاهات العقلية المعاصرة في دراسة مشكل الحديث النبوي تحليلًا ونقدًا، محمد رمضان أحمد، مركز البيان للبحوث والدراسات.

(١) انظر: ضوابط التأويل لنصوص القرآن والسنة، د. يحيىٰ رضا جاد، مجلة المسلم المعاصر، منشور في العدد (١٥٠).

فإذا كان القرآن والسنة -وهما مصدرا التشريع، ولهما من القداسة والمكانة عند المسلمين- قد عبثوا بهما؛ فكيف بمكانة الصحابة والتابعين وتابعيهم وأقوالهم عند هؤلاء القوم؟!

ومن أصحاب هذا الاتجاه المنحرف: محمد أركون، ونصر أبو زيد، وخليل عبد الكريم، وهشام جعيط، ومحمد شحرور.

وهذا الأخير هو محل حديثنا، فمن محمد شحرور؟ وما مكانته في علم التفسير؟

هو: محمد ديب شحرور، حصل على شهادة الدكتوراه في الهندسة المدنية، وهو متخصص في فحص التربة[1].

ولد في دمشق سنة ١٩٣٨م، وحصل على الشهادة الثانوية في دمشق، ثم سافر ببعثة دراسية إلى الاتحاد السوفيتي سنة ١٩٥٨م، والتحق بالهندسة المدنية في موسكو سنة ١٩٥٩م، وتخرج بدرجة دبلوم في الهندسة المدنية في سنة ١٩٦٤م، وحصل الماجستير في سنة ١٩٦٩م، والدكتوراه في سنة ١٩٧٢م، وعمل مدرسًا في كلية الهندسة في دمشق.

له عدة كتب في مجال اختصاصه تؤخذ كمراجع هامة لميكانيك التربة والأساسات. وبدأ في دراسة التنزيل الحكيم في إيرلندا بعد حرب ١٩٦٧، وذلك في عام ١٩٧٠م، وقد ساعده المنطق الرياضي على هذه

---

(١) انظر: تهافت القراءة المعاصرة، د. محامي منير الشواف (ص: ١١).

الدراسة، واستمر بالدراسة حتىٰ عام ١٩٩٠م، حيث أصدر الكتب في ضمن سلسلة (دراسات إسلامية معاصرة) الصادرة عن دار الأهالي للطباعة والنشر في دمشق.

فهو متخصص في الأصل في الهندسة المدنية، إلا أن هذا كله لا يمنع أن يبدي آراءه الشرعية لو كان له دراية بالعلم الشرعي ومناهج البحث فيه، لكن هذا لم يتحقق فيه.

ومن أبرز كتبه التي تناول فيها تفسير القرآن الكريم: "الكتاب والقرآن: قراءة معاصرة". وهو يقع في (٨١٩) صفحة، وذكر في مقدمته أنه قضىٰ في تأليفه أكثر من عشرين عامًا! والمتتبع لهذا الكتاب يجد أن مؤلفه فاقد لآليات المفسِّر، وقد تولىٰ الرد عليه كثيرٌ من الباحثين[١].

---

(١) من أهم الردود علىٰ هذا الكتاب:

كتاب: بيضة الديك، يوسف صيداوي، المطبعة التعاونية، دمشق، ١٩٩٣م.

كتاب: قراءة علمية للقراءات المعاصرة، د. شوقي أبو خليل، دار الفكر، دمشق، ١٩٩١م.

كتاب: ذاك رد، د. نشأة ظبيان، دار قتيبة، دمشق، ١٩٩٢م.

كتاب: القراءة المعاصرة مجرد تنجيم للدكتور محمد شحرور، سليم الجابي، دار الفكر، دمشق، ١٩٩١م.

كتاب: تهافت القراءة المعاصرة، منير الشواف، دار الشواف، دمشق، ١٩٩٣م.

كتاب: الاتجاهات المنحرفة في التفسير في العصر الحديث، د. عادل الشدي، مدار الوطن للنشر، ٢٠١٠م.

كتاب: الإشكالية المنهجية في الكتاب والقرآن: دراسة منهجية، ماهر المنجد، دار الفكر، سوريا، ١٩٩٤م. =

منهج محمد شحرور في التفسير:

يمكن القول بإيجاز في منهجه ما يلي[1]:

= كتاب: تقويم علمي لكتاب: الكتاب والقرآن الكريم، د. محمد فريز منفيخي، دار الرشيد، ١٤١٣هـ.

كتاب: موقف د. محمد شحرور من أركان الإيمان من خلال كتابه الكتاب والقرآن، بدر ناضرين.

مقالة: الفكر الحداثي: محمد شحرور وتقسيمه لآيات القرآن الكريم في كتابه "الكتاب والقرآن" نمودجًا، محمد منظور وَمصدق مجيد، مجلة الإسلام في آسيا، ديسمبر ٢٠١١م.

مقالة: تقاطعات خطرة على دروب القراءات المعاصرة، شوقي أبو خليل، نهج الإسلام، ع(٤٣)، ١٩٩١م.

مقالة: الخلفية اليهودية لشعار قراءة معاصرة، محمد سعيد البوطي، مجلة نهج الإسلام، سوريا، ع(٤٢)، ١٩٩٠م.

مقالة: لماذا طفت التلفيقية على كثير من مشروعات تجديد الإسلام، نصر حامد أبو زيد، مجلة الهلال، القاهرة، ع(١٠)، ١٩٩١م.

مقالة: المنهج النفعي في فهم النصوص الدينية، نصر حامد أبو زيد، الهلال، ع(٣)، ١٩٩٢م.

مقالة: قراءة نقدية في (الكتاب والقرآن)، محمد شفيق ياسين، نهج الإسلام، ع(٤٦)، ١٩٩٦م.

مقالة: الحدود في الإسلام، محمد شفيق ياسين، نهج الإسلام، ع(٤٧)، ١٩٩٢م.

مقالة: إشكالية فهم النص القرآني - محمد شحرور نموذجًا، د. محمد سالم سعد الله، موقع رابطة أدباء الشام.

مقالة: طرافة في التقسيم وغرابة في التأويل، طارق زيادة، مجلة الناقد، بيروت، ع(٤٥)، ١٩٩٢م.

(١) انظر: الإشكاليات المنهجية في الكتاب والقرآن، السيد ماهر المنجد (ص: ١٧٨).

١) أن فيه تحطيمًا لخصائص اللغة العربية وقواعدها.

٢) عدم المقدرة علىٰ قراءة المعجم وفهمه، وتفسير الكلمات بغير معناها.

٣) مخالفة معجم مقاييس اللغة لابن فارس، وإهمال المعاجم الأخرىٰ.

٤) تزييف حقائق اللغة والادعاء بما ليس فيها.

٥) مخالفة نظرية الجرجاني في النظم من خلال اقتطاع المفردة من سياقها وتجريدها من معناها الحقيقي.

٦) مخالفة ما ورد في الشعر الجاهلي.

٧) الاستخفاف بعقل القارئ، وغياب المنهج العلمي الحقيقي.

٨) إضفاء صفة العلمية والحقيقة علىٰ افتراضات وتصورات مزاجية تجنح وفق هوىٰ المؤلف.

٩) الانطلاق من أفكار الماركسية ومبادئها، وليّ آيات القرآن الكريم للتعبير عن معطيات ماركس.

١٠) إقحام علم الرياضيات واستخدام ألفاظ العلم والتكنولوجيا لغرض الإرهاب العلمي ومصادرة الأفكار.

١١) بناء نظرية فقهية علىٰ أسس فاسدة ومقدمات باطلة علميًّا ومنطقيًّا ولغويًّا.

١٢) وضع النتائج قبل المقدمات.

١٣) عدم التوثيق، وانعدام المرجعية مطلقًا، وعدم مراعاة أبسط قواعد منهجية البحث العلمي الدقيق المتبع في جميع البحوث العلمية التي تسند لنفسها اكتشاف الحقيقة وتقديمها للقارئ؛ فالكتاب رغم ضخامته إلا أن المؤلف لم يذكر مرجعًا واحدًا علىٰ طول الـ ٨١٩ صفحة!

انحرافات محمد شحرور في التفسير، ولنا معه عدة وقفات:

الوقفة الأولى: تقسيمه آيات القرآن إلى ثلاثة أقسام، والغرض من ذلك:

يرىٰ شحرور أن القرآن من حيث الآيات ينقسم إلىٰ ثلاثة أقسام:

١) الآيات المحكمات: وهي التي تمثل رسالة النبي ﷺ، وقد أطلق الكتاب عليها مصطلح: "أم الكتاب"، وهي قابلة للاجتهاد حسب الظروف الاجتماعية والاقتصادية، ما عدا العبادات والأخلاق والحدود.

٢) الآيات المتشابهات: وقد أطلق عليها الكتاب مصطلح: "القرآن والسبع المثاني"، وهي القابلة للتأويل، وتخضع للمعرفة النسبية، وهي آيات العقيدة.

٣) آيات لا محكمات ولا متشابهات: وقد أطلق عليها الكتاب مصطلح: "تفصيل الكتاب".

ويرىٰ شحرور أن التحدي للناس جميعًا بالإعجاز إنما وقع في الآيات المتشابهات "القرآن والسبع المثاني"، وفي الآيات غير

المحكمات وغير المتشابهات "تفصيل الكتاب"، أما الآيات المحكمات فلا إعجاز فيها(١).

ثم يبين بوضوح غرضه من هذا التقسيم ويقول: "لقد تبين لنا أن هناك فرقًا جوهريًّا بين الكتاب والقرآن والفرقان والذكر؛ فالقرآن والسبع المثاني هما الآيات المتشابهات، ويخضعان للتأويل على مر العصور والدهور؛ لأن التشابه هو ثبات النص وحركة المحتوى. وقد تم إنزال القرآن بشكل متشابه عن قصد، وقد كان النبي ﷺ ممتنعًا عن التأويل عن قصد، أي: أن القرآن يؤوَّل ولا يفسَّر، وأن كل تفاسير القرآن تراث يحمل طابع الفهم المرحلي النسبي"(٢).

يتضح من خلال هذا النص ما يلي:

١) هذا التقسيم الذي أورده شحرور محدَث، والغرض منه: التوصل إلى قابلية النصوص للتأويل غير المنضبط، وإلا فأهل العلم يقسمون الآيات القرآنية إلى محكم ومتشابه، ولا وجود لقسم ثالث، قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ﴾ [آل عمران: ٧].

يقول الميداني: "لقد اخترع هذا التقسيم العجيب الغريب لكتاب الله من عند نفسه، ليمرر مفترياته على كتاب الله المنزل على رسوله كما يهوي أساتذته الملاحدة الماركسيون، والقرامطة الباطنيون

(١) انظر: الكتاب والقرآن (ص: ٣٧).
(٢) الكتاب والقرآن (ص: ٣٧).

الإباحيون، وليس لتقسيماته هذه أسانيد عقلية ولا تطبيقية صحيحة، وحيلته كما شهدنا حركات بهلوانية ادعائية، وألاعيب لغوية، واستنباطات تحريفية خرافية، وقد تظهر في بعضها لوثات فكرية، نظير اللوثات الفكرية التي تظهر في عبارات نزلاء مستشفيات الأمراض العقلية"(١).

٢) قول شحرور: "إن التحدي للناس جميعًا بالإعجاز إنما في وقع الآيات المتشابهات "القرآن والسبع المثاني"، وفي الآيات غير المحكمات وغير المتشابهات "تفصيل الكتاب"، أما "الآيات المحكمات" فلا إعجاز فيها".

هذا جهل وتجاوز للحقيقة، ونص صريح بأن القرآن ليس كله معجزًا، ومخالفة لا مسوغ لها، بل تناقض مع آيات التحدي التي لم يفرق فيها بين قرآن وقرآن أو بين سورة وسورة، بل جاء التحدي عامًّا(٢).

٣) إدخاله آيات العقيدة في المتشابهات أمر في غاية الخطورة؛ إذ من المناسب في جانب العقيدة التي يريد الله من عباده أن يعتقدوها أن تكون في غاية الوضوح والظهور، لا أن تكون من المتشابهات! فالله سبحانه يريد بعباده اليسر ولا يريد بهم العسر(٣).

---

(١) التحريف المعاصر في الدين، عبد الرحمن حبنكة (ص: ٥٩).

(٢) انظر: القرآن وأوهام القراءة المعاصرة، عفانة (ص: ٢١).

(٣) موقف د. محمد شحرور من أركان الإيمان، بدر ناضرين (ص: ١٣).

٤) الآيات المحكمات والتي يعرّفها بأنها الأحكام: (التشريع من إرث وعبادات، والأخلاق والمعاملات والأحوال الشخصية والمحرمات) فهذه جعلها "الرسالة".

ثم أورد سؤالًا حتىٰ يوضح تقسيمه، فقال: "فإذا سأل سائل: هل آية الإرث من القرآن؟ فالجواب: لا، هي ليست من القرآن "النبوة" ولكنها من أم الكتاب "الرسالة"، وهي من أهم أجزاء الرسالة وهو الحدود".

نفيه إطلاق اسم "القرآن" علىٰ آية الإرث خطأ ظاهر، فإن الله أطلق التحدي علىٰ إعجاز آيات القرآن بلفظ القرآن، فمن نفىٰ تسمية شيء من آيات القرآن بالقرآن فقد نفىٰ عنها الإعجاز، **فهل يقول شحرور بأن آية الإرث غير معجزة، وأنه يمكن لأحد أن يأتي بمثلها؟!**

لا تتعجب إذا علمت أن الجواب هو: نعم!! فشحرور يرىٰ أن الإعجاز والتحدي إنما هو في قسمين فقط من تقسيماته، لا ثلاثة! قال: "ونحن نرىٰ أن التحدّي للناس جميعًا بالإعجاز إنما وقع في الآيات المتشابهات "القرآن والسبع المثاني"، وفي الآيات غير المحكمات وغير المتشابهات "تفصيل الكتاب" حيث أن هذين البندين يشكلان نبوة محمد ﷺ"(١).

(١) انظر: موقف د. محمد شحرور من أركان الإيمان، بدر ناضرين (ص: ١٤).

الوقفة الثانية: إخضاع القرآن للتأويل:

يرى شحرور أن القرآن لا بد أن يكون قابلًا للتأويل، وتأويله يجب أن يكون متحركًا وفق الأرضية العلمية لأمة ما، في عصر ما، على الرغم من ثبات صيغته، وفي هذا يكمن إعجاز القرآن للناس جميعًا دون استثناء[١].

وفي الحقيقة: التأويل المتحرك لمعاني القرآن دون الوقوف عند ثبات صيغته ودلالته هو تبديل، ويؤدي في غالب الأحيان إلى إفراغ النص من مضمونه؛ ليصبح منطلقًا للأهواء والأعراف والتقاليد[٢].

من الذي يؤول آيات الكتاب؟

يقول شحرور: "أما قوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾. فهو: بما أن القرآن حقيقة مطلقة فتأويله الكامل لا يكون إلا من قبل واحد فقط، وهذا الواحد هو الله المطلق. ولهذا قلت: إن النبي ﷺ لا يعلم التأويل الكامل للقرآن بكل تفاصيله؛ لأنه يصبح شريكًا لله في مطلق المعرفة. أما معرفة التأويل المتدرج المرحلي فهو من قبل الراسخين في العلم كلهم مجتمعين لا فرادى. وهنا يجب أن نفهم أن الراسخين في العلم هم: مجموعة كبار الفلاسفة وعلماء الطبيعة وأصل الإنسان وأصل الكون وعلماء الفضاء وكبار علماء التاريخ مجتمعين".

---

(١) الكتاب والقرآن (ص: ٦٠).

(٢) انظر: الاتجاهات المنحرفة في التفسير، د. عادل الشدي (ص: ٢٦٨).

ويقول أيضًا: "ولم نشترط لهذا الاجتماع حضور الفقهاء؛ لأنهم ليسوا معنيين -في رأينا- بهذه الآية، لأنهم أهل أم الكتاب. والراسخون في العلم مجتمعين يؤولون حسب أرضيتهم المعرفية، ويستنتجون النظريات الفلسفية والعلمية، ويتقدم التأويل والعلم في كل عصر حتىٰ قيام الساعة.. ".

"فالراسخون في العلم هم من الناس الذين يحتلون مكان الصدارة بين العلماء والفلاسفة، وهؤلاء من أمثال: البيروني، الحسن بن الهيثم، ابن رشد، إسحاق نيوتن، أينشتاين، تشارلز داروين، كانت، هيجل!!"(١).

وبعد أن أورد القواعد الست في التأويل نبَّه شحرور من جديد أن التأويلات التي يؤولها هو وغيره قابلة للتطور وللنقض؛ لأنها قائمة علىٰ أساس نسبية معرفة الحقيقة، كما أنه يقول: "علينا أن نسحب القرآن قبل أن يفوت الأوان من أيدي السادة الوعاظ المعروفين بالعلماء الأفاضل أو رجال الدين، فموقفهم من القرآن هو كموقف العامة تمامًا، وإن كان لهم دور فهو دور وعظي بحت"(٢).

والمسألة في الحقيقة ليست مسألة خصومة بين شحرور والفقهاء كما يبدو للقارئ، بل خصومته مع كتاب الله نفسه، ومن المواقف التي تجلي ذلك: موقفه من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان؛ إذ يقول:

---

(١) الكتاب والقرآن (ص: ١٩٣).

(٢) الكتاب والقرآن (ص: ١٩٦).

"فقد أصدرت الأمم المتحدة الإعلان العالمي لحقوق الإنسان في ١٠ ديسمبر ١٩٤٨م... والغريب أن مؤتمرات الفقه الإسلامي وضعت شرطًا لقبول ميثاق حقوق الإنسان متمثلًا في إخضاعها لضوابط الشريعة التي وضعها الفقهاء منذ قرون غابرة"[1].

وقد جاء في الإعلان العالمي لحقوق الإنسان ما نصه: "للرجل والمرأة -متىٰ أدركا سن البلوغ- حق الزواج وتأسيس أسرة دون أي قيد بسبب العِرق أو الجنسية أو الدين"[2].

والسؤال: أليس في هذا تصادم -يا شحرور- مع قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢١].

ومن اللطيف أن هذا الإعلان العالمي في حقوق الإنسان قد نص في المادة (٣٠) علىٰ أنه: "ليس في هذا الإعلان نص يجوز تأويله"؛ فأين شحرور المشتغل بالتأويلات في كتاب الله وبالتشنيع علىٰ الفقهاء عن مثل هذا النص؟! لا سيما وقد اتهم الفقهاء بأنهم شاركوا الله في الإلهية[3]، يقول: "أن نزعم أن كلمة الله العليا هي في تطبيق الفقه

(١) الدين والسلطة (ص: ٤١٠).
(٢) وثيقة الإعلان العالمي، موقع الأمم المتحدة.
(٣) انظر: الدين والسلطة (ص: ١٨٧).

الموروث وفتاوىٰ الفقهاء وأوامرهم ونواهيهم تحت شعار "هكذا أجمع الجمهور"، وتحت شعار "بخاري ومسلم"، فهو استخفاف بكلمة الله، وهو العبودية بعينها"[١].

إذن فهو يرىٰ أن الرجوع للصحيحين البخاري ومسلم وما أجمع عليه العلماء استخفاف بكلمة الله، بل وعبودية! بينما نجده حين يتحدث عن الإعلان العالمي لحقوق الإنسان الذي لا يجوز تأويله يقول: "يعتبر الإعلان العالمي لحقوق الإنسان خير تعبير عن إعلان كلمة الله هي العليا"[٢].

بل يعتبر هذا البيان العالمي لحقوق الإنسان بمثابة العمود الفقري للعقيدة الإسلامية[٣]، وأن تبني منظمة حقوق الإنسان الصادرة عن الأمم المتحدة هو أحسن تعبير عن الحفاظ علىٰ الدين[٤].

إذن فلا عجب ممن جعل الملاحدة هم الراسخون في العلم وأشد معرفة بمعاني ألفاظ القرآن الكريم من السلف الصالح أن يعتمد علىٰ بيانات الأمم المتحدة لتكون كلمة الله هي العليا! ويصطنع معارك مع فقهاء وعلماء الإسلام.

---

(١) الإسلام والإيمان (ص: ١٥٩).
(٢) الإسلام الأصل والصورة (ص: ١٩٦).
(٣) نحو أصول فقه جديد للفقه الإسلامي (ص: ٣٨١).
(٤) تجفيف منابع الإرهاب (ص: ٣٠١)، وانظر: بؤس التلفيق، يوسف سمرين (ص: ١٢٠-١٢٢).

الوقفة الثالثة: موقفه من تفاسير السلف:

لا يمكن لمن يقرأ ويعرف أقوال شحرور الشاذة في الدين أن يقول: سلَفُهُ في ذلك صحابة رسول الله ﷺ أو التابعون وأتباعهم، بل لا بد أن يكون ثمة انفصام وتقاطع وتدابر بين التراث وبين هذه الآراء المتضادة المنفّرة.

يقول شحرور مبينًا مذهبه في ذلك: "إن النتيجة المباشرة لما قلنا: هي أن كل التفاسير الموجودة بين أيدينا ليست أكثر من تفاسير تاريخية مرحلية للقرآن، أي: لها قيمة تاريخية لأنها نتاج أشخاص عاشوا منذ قرون"(١).

ويقول أيضًا: "لسنا عبيدًا للسلف، فأنا لا أقبل أن أجلس عند أقدام ابن عباس أو أقدام الشافعي!"(٢).

ويقول كذلك: "كل تفاسير القرآن تراث يحمل طابع الفهم المرحلي النّسبيّ"(٣).

تُرىٰ متىٰ يكون التفسير تاريخيًّا أو غير تاريخيّ؟ ما المدة التي ينبغي أن تمرّ علىٰ وفاة المفسر حتىٰ يكون تفسيره تاريخيًّا؟

---

(١) الكتاب والقرآن (ص: ١٩٣-١٩٤).

(٢) لا أقبل الجلوس عند أقدام ابن عباس والشافعي - مجلة (الرجل اليوم)، منشور بتاريخ: ٢٥ فبراير ٢٠١٠م.

(٣) من مقدمة كتابه: الكتاب والقرآن.

إنه لا يمكن إسقاط التفاسير بهذه الصورة، فالعلم الذي فيها لا تسقط قيمته باعتبار الزمن، وأما بعض آراء مفسريها واجتهاداتهم في الأمور الكونية فقد ننظر إليها باعتبارها مرحلة تاريخية، ولكن هنالك أحكام الدين والقصص والتشريع والفقه والتاريخ والسيرة وغيرها مما لا يمكن إغفالها أو إسقاطها أبدًا[(١)].

ويمكن أن نستنتج من كل ذلك: أنه لا قيمة عنده لإجماع الصحابة ومن بعدهم، ولا قيمة لتفاسير علماء الإسلام علىٰ مدىٰ أربعة عشر قرنًا من الزمان من باب أولىٰ.

والحق الذي لا ريب فيه: أن لتفسير الصحابة والتابعين مكانة لا يعادلها أي تفسير متأخر، قال الغزالي: "فهم كانوا أعرف الناس بمعاني القرآن، وأحراهم بالوقوف علىٰ كنهه ودرك أسراره، الذين شاهدوا الوحي والتنزيل وعاصروه وصاحبوه، بل لازموه آناء الليل والنهار، مُتَشَمِّرين لفهم معاني كلامه وتلقيه بالقبول"[(٢)]، وقال الشاطبي: "فإن السلف الصالح من الصحابة والتابعين ومن يليهم كانوا أعرف بالقرآن وبعلومه وما أُودع فيه"[(٣)].

---

(١) انظر: شبهات معاصرة حول المصادر الأساسية للتشريع، د. محمد رفعت، نشر في مجلة الحكمة العدد ٢٣ الصادر في شهر ٧ من عام ١٤٢٢هـ.

(٢) إلجام العوام عن علم الكلام، ضمن القصور العوالي من رسائل الإمام الغزالي (٢/ ٢٧٢) بتصرف.

(٣) الموافقات (٢/ ٦٧).

فقد نزل القرآن على معهودهم في الخطاب وعادتهم في الكلام، فهم أعمق صلة بكلام الله وكلام رسوله ﷺ، وأنقى فطرة وأزكى فهمًا وأصح لسانًا، وقد كانوا في القرون المشهود لها بالخيرية؛ لذا عدّ مخالفتهم من علامات الشذوذ والخطأ في الأقوال، كما قال الطبري في معرض رده لقول من الأقوال: "وذلك تأويل يكفي من الشهادة على خطئه خلافه قول جميع أهل العلم من الصحابة والتابعين"(١).

ومن أهم الخصائص التي امتاز بها تفسير السلف: أن الحق لا يخرج عن أقوالهم، فطالب الحق لا بد له من معرفة خلافهم، وهذه نتيجة لازمة لكون تفسيرهم حجة على من بعدهم، فإذا اختلف الصحابة على قولين أو أكثر فلا يسوغ لأحد أن يأتي بقول زائد مناقض لهذه الأقوال أو مبطل لها، ووجه ذلك: "أن تجويز القول الزائد مع إمكان ترجيحه يؤدي إلى أن الأمة بمجموعها أخطأت في معنى الآية، ولم تعرف الصواب فيها، وهذا ممتنع؛ لأن فيه نسبة الأمة إلى الغفلة عن الحق وتضييعه، كما أن فيه أيضًا: القول بخلو عصرهم عن قائم لله بحجته"(٢).

الوقفة الرابعة: قوله بتاريخية القرآن:

يقول شحرور: "أريد هنا أن أؤكد على نقطة في غاية الأهمية، وهي أن القرآن كتاب الوجود المادي والتاريخي؛ لذا فإنه لا يحتوي على الأخلاق ولا التقوى ولا اللياقة ولا اللباقة، ولا تنطبق عليه عبارة

---

(١) تفسير الطبري (١٦/ ١٣٢).

(٢) قواعد التفسير (١/ ٢٠٠) بتصرف، وانظر: اختلاف السلف في التفسير، محمد صالح سليمان (ص: ٥٩).

«هكذا أجمع الفقهاء» و«هكذا قال الجمهور»، إننا في القرآن والسبع المثاني غير مقيدين بأي شيء قاله السلف، إننا مقيدون فقط بقواعد البحث العلمي، والتفكير الموضوعي، وبالأرضية العلمية في عصرنا؛ لأن القرآن حقيقة موضوعية خارج الوعي فهمناها أم لم نفهمها، قبلنا بها أو لم نقبل. والشيطان حين محاولة فهم القرآن يدخل فينا من خلال الأخلاق واللياقة واللباقة، فالقرآن حقيقة موضوعية مادية وتاريخية لا تخضع لإجماع الأكثرية حتىٰ ولو كانوا كلهم تقاةً، ويخضع لقواعد البحث العلمي حتىٰ ولو كان الناس كلهم غير تقاة"[1].

يتضح من خلال هذا النص ما يلي:

١) ادعاؤه أن الأحكام والتكاليف التي في المصحف ليست مما يطلق عليه لفظ «القرآن» -كما سبق أن بينَّا ذلك-، بينما كان الرسول والمؤمنون المسلمون وسائر العرب يفهمون أن لفظة «القرآن» تطلق علىٰ كل الآيات التي كانت تنزل علىٰ محمد ﷺ والتي جمعت في المصحف، واستمر كل الناس يفهمون هذا، حتىٰ جاء المحرف شحرور، وادعىٰ أن لفظة «القرآن» تطلق فقط علىٰ بعض آيات المصحف، وهي: الآيات التي تتحدث عن الوجود المادي والتاريخي[2]؛ ولهذا نجده يجزم بأن القرآن لا يحتوي علىٰ الأخلاق ولا التقوىٰ، مخالفًا للآيات الصريحة التي نصت علىٰ ذلك.

---

(١) الكتاب والقرآن (ص: ٩١).

(٢) انظر: التحريف المعاصر في الدين (ص: ٦٩-٧٠).

٢) أنه جعل الشيطان هو الحائل بين فهم السلف للقرآن فهمًا حقيقيًّا، وهذه دعوىٰ علىٰ قاعدة "رمتني بدائها وانسلّت"، فأي فهم للقرآن أفضل من فهم القرون الأولىٰ الذين شهد لهم النبي ﷺ بالخيرية؟![1].

٣) أنه يدعو إلىٰ اعتبار القرآن نصًّا تاريخيًّا موضوعيًّا نزل في سياق معيّن ولمجتمع معيّن، فالعبرة بخصوص الظروف والملابسات التي صاحبت نزوله، وليس بعموم الألفاظ والدلالات.

وفي الحقيقة: إن تقييد القرآن بسياقه التاريخي يفقده هو والإسلام صفة الشمول التي عبر عنها سبحانه: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ﴾ [سبأ: ٢٨].

قال الطبري: "﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ ﴾ -يا محمد- إلىٰ هؤلاء المشركين بالله من قومك خاصة، ولكنا أرسلناك ﴿ كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ﴾ أجمعين؛ العرب منهم والعجم، والأحمر والأسود"[2].

وهذا القول يؤدي إلىٰ نزع ثبوت الدلالة عن النص نهائيًّا، وتحويله إلىٰ نص متغير الدلالة حسب الظروف التاريخية للقارئ[3].

---

(١) انظر: الاتجاهات المنحرفة في التفسير في العصر الحديث، د. عادل الشدي (ص: ٢٧١).
(٢) تفسير الطبري (٢٢/ ٩٦).
(٣) انظر: الاتجاهات المنحرفة في التفسير في العصر الحديث، د. عادل الشدي (ص: ٢١٦-٢١٧، ٢٧١).

الوقفة الخامسة: اعتماده على اللغة في التفسير:

اللغة هي الشماعة التي يتعلق بها كثير من أهل البدع؛ فإنهم حين لم يتمكنوا من الإتيان بالتفسير بالمأثور، وضَعَّفُوا طُرُق الاستدلال بها، كان لا بد لهم من طريق يبينون للناس كيف استقوا معنىٰ الآية، لكن هل فعلًا كان شحرور يعتمد علىٰ اللغة في التفسير؟ وهل له منهج منضبط في ذلك؟ وهل يتقيد به؟

لقد سلَّط الأستاذ يوسف الصيداوي نقده علىٰ المنطق اللغوي عند شحرور؛ كما في كتابه "بيضة الديك"، وبيّن بلغة الدليل مدىٰ ضعفه وهزاله وتهافته، كما ناقش بعض أحكامه المؤسسة علىٰ اللغة، وأحصىٰ الأخطاء النحوية والصرفية وغيرها التي جاءت في الكتاب.

ويرىٰ بعض الباحثين أن أمثال شحرور لا يؤتمنون في أقوالهم وتقعيداتهم؛ إذ الأمر لا يعدو أن تكون المنهجية المعلنة ليست سوىٰ ستار ليصلوا إلىٰ ما وراءها من نتائج معروفة لديهم.

وقد تحدث شحرور مرارًا عن منهجية يسلكها في كتبه، وأخَصُّها: المباحث اللغوية، لكن الواقع أن كتبه حوت منظومات خفية هي الحاكم الأوَّلي في ترجيح ما يصل إليه من آراء.

وإن تصديق شحرور في المنهجية التي يعلنها لنفسه مرارًا يؤدي إلىٰ عدم القدرة علىٰ التنبؤ بما سيقوله، وهذا نابع من قصورها في تفسير ما قاله من قبل، والواقع أنه لا يحتكم إلىٰ أي إطار منهجي

معلن، وإنما هو مجرد تلفيق لمنظومات متنوعة[١].

ذكر شحرور في مقدمة كتابه "الكتاب والقرآن"[٢] أن تفسير القرآن يعتمد علىٰ فهم اللغة من خلال البيئة التاريخية المتطورة. وأسس منهجه اعتمادًا علىٰ عدة أمور[٣]:

١) مسح عام لخصائص اللسان العربي.

٢) الاطلاع علىٰ آخر ما توصلت إليه علوم اللسانيات الحديثة من نتائج، وعلىٰ رأسها: أن كل الألسن الإنسانية لا تحوي خاصية الترادف.

٣) إذا كان الإسلام صالحًا لكل زمان ومكان، فيجب الانطلاق من فرضية أن الكتاب تنزل علينا، وأنه جاء لجيلنا في النصف الثاني من القرن العشرين.

وهذا الأساس الثالث يمكن عدُّه من أهم أسباب الشذوذ والخطأ الذي وقع فيهما، يريد من كون القرآن صالحًا لكل زمان ومكان أن تكون أحكامه تابعة لتغير الأحوال، وتحول المزاج العام للناس، فخلص من ذلك إلىٰ القول بثبوت النص وتغير المحتوىٰ، وهي فرية خطيرة[٤].

---

(١) انظر: بؤس التلفيق، يوسف سمرين (ص: ٨٠).

(٢) الكتاب والقرآن (ص: ٧).

(٣) التبيان (١/ ٤٧).

(٤) انظر: القرآن وأوهام القراءة العصرية (٢٦).

بل هناك ما هو أهم من ذلك: وهو الإعراض التام عن تفاسير السلف بحجة الاعتماد على اللغة؛ إذ اللغة لا تستقل بذاتها في فهم كلام الله؛ لهذا لو سلَّمنا جدلًا أن شحرورًا متمكن في اللغة -وهو ليس كذلك- لكان ذلك غير كافٍ له في تفسير كلام الله.

قال القرطبي مشيرًا إلى ذلك: "فمن لم يحكم ظاهر التفسير وبادر إلى استنباط المعاني بمجرد فهم العربية كثر غلطه، ودخل في زمرة من فسر القرآن بالرأي، والنقل والسماع لا بد له منه في ظاهر التفسير أولًا ليتقي به مواضع الغلط، ثم بعد ذلك يتسع الفهم والاستنباط. والغرائب التي لا تفهم إلا بالسماع كثيرة، ولا مطمع في الوصول إلى الباطن قبل إحكام الظاهر"[١].

وقد عدَّ شيخ الإسلام ابن تيمية الاعتماد على اللغة وحدها أحد أسباب الخطأ[٢].

فالمطالبة بدراسة القرآن على أنه نص عربي وتفريغه من المحتوى الشرعي الذي يحيط به دعوى باطلة زائفة مغرضة، ليس قصد أصحابها إلا الهدم والنخر في جسم هذه الأمة، ومحاولة النيل من تراثها الفكري الذي يمثل ثباتًا في القيم والأخلاق والعقائد[٣].

---

(١) تفسير القرطبي (١/ ٣٤).

(٢) مقدمة في أصول التفسير (ص: ٧٩-٨١).

(٣) انظر: التفسير اللغوي، د. مساعد الطيار (ص: ٦٤٧).

ونختم هذه الورقة بالقول:

شحرور لا يعدُّ من علماء الأمة، لا في التفسير ولا في غيره من علوم الشريعة، فلا هو صاحب معتقد سليم[(١)]، ولا هو يلتزم منهج السلف في التفسير، ولا له دراية وتمكن بعلم اللغة ولا العلوم المتعلقة بالتفسير، فهو أجنبيّ عن هذا العلم بلا شك، يغرِّد خارج السرب، بل لو قلنا: إنه يعبث بكتاب الله تعالىٰ لما أبعدنا الوصف!

وقد كثُرت الموضوعات المثيرة في كتاباته، حتىٰ قال عنه صاحب كتاب "النزعة المادية في العالم الإسلامي": "لقد أحصيت في كتابه ما يزيد علىٰ ألف موضع يمثل انحرافًا عن المنهج الإسلامي!"[(٢)].

وصلىٰ الله وسلم وبارك علىٰ نبينا محمد، وعلىٰ آله وصحبه أجمعين[(٣)].



---

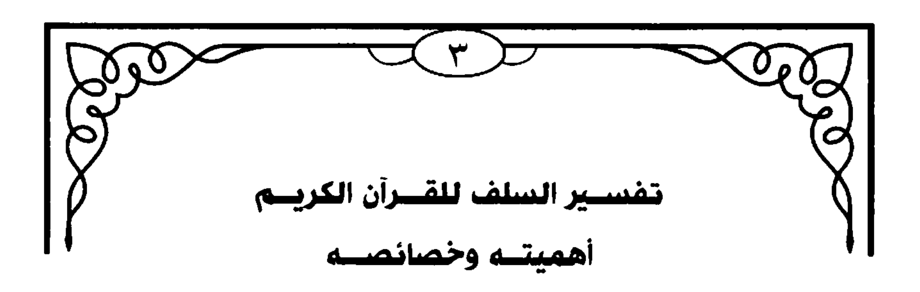
(١) ولم نتطرق في هذه الورقة لانحرافاته العقدية، وقد قام بعض الباحثين بتتبع أقواله فيها، فمن المؤلفات في ذلك:

١- موقف د. محمد شحرور من أركان الإيمان من خلال كتابه الكتاب والقرآن: قراءة معاصرة، للمؤلف: بدر بن محمد ناصرين، (بحث لمادّة دراسات نقدية في الفكر المعاصر لمرحلة الدكتوراه).

٢- بؤس التلفيق، يوسف سمرين، مركز دلائل.

(٢) النزعة المادية في العالم الإسلامي، عادل التل (ص: ٣٠٥).

(٣) إعداد: فوزي بن عبد الصمد فطاني.



٣
تفسير السلف للقرآن الكريم
أهميته وخصائصه

في ضوء توالي الهجمات المتسارعة لفرض الغرب سيطرته علينا أخلاقيًّا وسلوكيًّا وفكريًّا، وإنشاء جيل جديد بعيد عن أسلافه في تدينه وتمسكه بالفهم الصحيح لهذا الدين، يأتي في السياق نفسه مَن ينتسب إليه ليسير في طريق الغواية ليبعد الناس عن أهم مصادر التشريع بل أساسه وينبوعه؛ ليضل الناس بتفاسير عصرية لنصوص القرآن الكريم، ضاربًا عُرض الحائط بتفاسير السلف[1] وإجماعاتهم وقواعدهم ومناهجهم؛ لينتهي به الأمر إلىٰ الانحراف عن فهم كتاب الله، والانحراف عن دينه القويم ونهجه المستقيم.

---

(١) المقصود بالسلف: أهل القرون الثلاثة: الصحابة والتابعون وتابعوهم.
قال الشاطبي: "فإن السلف الصالح من الصحابة والتابعين ومن يليهم كانوا أعرف بالقرآن وبعلومه وما أودِعَ فيه". الموافقات (٢/ ٦٧).
وقال القلقشندي: "المراد بالسلف: الآباء المتقدمون، أخذًا من قولهم: سلف؛ إذا مضىٰ، وربما أطلق علىٰ من تقدم في صدر الإسلام من الصحابة والتابعين". صبح الأعشىٰ (٦/ ٤١).
وقال الإمام السفاريني: "المراد بمذهب السلف ما كان عليه الصحابة الكرام -رضوان الله عليهم- وأعيان التابعين لهم بإحسان وأتباعهم وأئمة الدين ممن شهد له بالإمامة، وعرف عظم شأنه في الدين، وتلقىٰ الناس كلامهم خلف عن سلف، دون مَن رُمِي ببدعة، أو شهر بلقب غير مرضي". لوامع الأنوار البهية (١/ ٢٠).

فمنهج السلف في التفسير له أهمية كبرىٰ في فهم كتاب رب العالمين؛ فهو إما تفسير من رب العالمين، أو من رسوله الأمين، أو تفسير صحابي شهد التنزيل وعرف التأويل، أو تفسير تابعي نهل من مدرسة النبوة عن الصحابة المفسرين.

وقد خصهم الله تعالىٰ بصدق الضمائر، ونفاذ البصائر، وصحة الدين، ووثاقة اليقين، فلم يكونوا ليروموا مرامًا إلا سهَّل لهم ما تَوعَّر، ويسَّر عليهم ما تعسَّر، وسما بهم ما هو أقصىٰ منه مرمىٰ وأبعد مدىٰ[١].

قال ابن أبي حاتم رحمه الله: "فإن قيل: كيف السبيل إلىٰ معرفة ما ذكرت من معاني كتاب الله عز وجل ومعالم دينه؟ قيل: بالآثار الصحيحة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعن أصحابه النجباء الألباء الذين شهدوا التنزيل وعرفوا التأويل رضي الله تعالىٰ عنهم.

فإن قيل: فبماذا تعرف الآثار الصحيحة والسقيمة؟ قيل: بنقد العلماء الجهابذة الذين خصهم الله عز وجل بهذه الفضيلة، ورزقهم هذه المعرفة في كل دهر وزمان"[٢].

والمتأمل في تاريخ نشأة الفرق والاختلاف في الأمة يجد أن الدخلاء علىٰ الإسلام من أصحاب الثقافات اليونانية وغيرها كان لهم دور في تأويل آي الكتاب لموافقة آرائهم الفاسدة، ويمكننا أن نقول

---

(١) صبح الأعشىٰ للقلقشندي (٨/ ٢٥٠).

(٢) تقدمة الجرح والتعديل، لابن أبي حاتم (ص ٥).

بيقين: إن البعد عن منهج السلف في التعامل مع نصوص الوحيين يؤدِّي حتمًا إلىٰ ظهور الأقوال الضعيفة والآراء الشاذة والباطلة.

يقول ابن تيمية رحمه الله: "إن السلف كان اعتصامهم بالقرآن والإيمان، فلما حدث في الأمة ما حدث من التفرق والاختلاف صار أهل التفرق والاختلاف شيعًا، صار هؤلاء عمدتهم في الباطن ليست علىٰ القرآن والإيمان، ولكن علىٰ أصول ابتدعها شيوخهم، عليها يعتمدون في التوحيد والصفات والقدر، والإيمان بالرسول وغير ذلك، ثم ما ظنوا أنه يوافقها من القرآن احتجوا به، وما خالفها تأولوه؛ فلهذا نجدهم إذا احتجوا بالقرآن والحديث لم يعتنوا بتحرير دلالتهما، ولم يستقصوا ما في القرآن من ذلك المعنىٰ؛ إذ كان اعتمادهم في نفس الأمر علىٰ ذلك، والآيات التي تخالفهم يشرعون في تأويلها شروع من قصد ردها كيف أمكن، ليس مقصوده أن يفهم مراد الرسول، بل أن يدفع منازعه عن الاحتجاج بها"(١).

من هنا ينبغي علينا أن نبرز أهمية تفسير السلف، وأهم خصائصه؛ ليكون حاجزًا منيعًا ضد أهل الأهواء ومخططاتهم في إفساد الأجيال، وإبعادهم عن منهج رب العالمين:

أهمية تفسير السلف:

تكمن أهمية تفسير السلف الصالح في كونهم خير هذه الأمة، فالصحابة رضي الله عنهم خير أتباع الأنبياء، وهم أفضل من تمثَّل الإسلام

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (١٣/ ٥٨-٥٩).

واقعًا، يقول ابن تيمية رحمه الله: "من المعلوم بالضرورة لمن تدبّر الكتاب والسنة وما اتفق عليه أهل السنة والجماعة من جميع الطوائف أن خير قرون هذه الأمة في الأعمال والأقوال والاعتقاد وغيرها من كل فضيلة؛ أن خيرها القرن الأول ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم؛ كما ثبت ذلك عن النبي ﷺ من غير وجه، وأنهم أفضل من الخلف في كل فضيلة: من علم وعمل وإيمان وعقل ودين وبيان وعبادة، وأنهم أولىٰ بالبيان لكل مشكل. هذا لا يدفعه إلا من كابر المعلوم بالضرورة من دين الإسلام وأضله الله علىٰ علم... وما أحسن ما قال الشافعي رَحِمَهُ اللهُ في رسالته: (هم فوقنا في كل علم وعقل ودين وفضل، وكل سبب ينال به علم أو يدرك به هدىٰ، ورأيهم لنا خير من رأينا لأنفسنا)"[1].

أهم خصائص تفسير السلف:

١- قُرْب السّلف من عصر النبوة:

كان لوجود الصحابة في العصر النبوي أثره البالغ في فهم كلام الله تعالىٰ؛ إذ كان الرسول ﷺ بين أيديهم، يبين لهم ما يحتاجون إليه من المعاني، ويوضح ما أشكل عليهم، كما يتيح لهم الاجتهاد في فهمه، فيقرُّ مصيبهم علىٰ اجتهاده، ويبين لمخطئهم وجه خطئه. وقد حرص التابعون علىٰ تلقي التفسير عن الصحابة رضوان الله عليهم كما تلقوا عنهم علم السنة، قال ابن أبي مليكة: "رأيت مجاهدًا يسأل ابن عباسٍ

(١) مجموع الفتاوىٰ (٤/ ١٥٧-١٥٨).

عن تفسير القرآن ومعه ألواحه، فيقول له ابن عباسٍ: اكتب، قال: حتى سأله عن التفسير كله"[(١)]. وهذا زر بن حبيش يقول: "وفدت في خلافة عثمان بن عفان، وإنما حملني على الوفادة لقي أبي بن كعب وأصحاب رسول الله ﷺ"[(٢)].

وقد كان من أصحاب ابن عباس الذين يقولون بقوله ويفتون ويذهبون مذهبه: سعيد بن جبير وجابر بن زيد وطاوس ومجاهد وعطاء بن أبي رباح وعكرمة[(٣)].

ومن أصحاب ابن مسعود الذين يفتون بفتواه ويقرؤون بقراءته: علقمة بن قيس والأسود بن يزيد ومسروق وعبيدة السلماني والحارث بن قيس وعمرو بن شرحبيل[(٤)].

هذا بالنسبة لابن عباس وابن مسعود وهما مكثران، وهكذا الحال بالنسبة للآخرين من الصحابة المذكورين، فلهم تلاميذ سطرت أسماؤهم في تراجم الصحابة ومسانيدهم[(٥)].

---

(١) ينظر: جامع البيان (١/ ٨٥).

(٢) رواه أحمد في مسنده (١٨٠٩٠).

(٣) ذكر ذلك علي ابن المديني عن يحيىٰ بن سعيد. ينظر: علل الحديث ومعرفة الرجال (ص: ٤٥، ٤٨، ٤٩).

(٤) ينظر: المصدر نفسه (ص: ٤٤).

(٥) ينظر: مقدمة موسوعة الصحيح المسبور من التفسير بالمأثور، د. حكمت بشير (١/ ١٢).

٢- معاينة الصحابة لكثير من الوقائع ومعايشتهم لكثير من الأحداث التي نزل فيها القرآن:

لا شك أن الصحابة كانوا أعلم الناس بالأحداث والأحوال التي واكبت التنزيل؛ لكون تلك الآيات نزلت في البيئة والمجتمع الذي يعيشون فيه، وهذا يعطي التصور الصحيح لفهم الآية، والذي غالبًا ما يكون الخطأ في فهمها ناشئًا عن عدم إحاطة المفسر ودرايته بأحوال القضية التي نزلت فيها وملابساتها. فهم أعلم الناس بأسباب النزول: فيمن نزلت؟ ولماذا نزلت؟ ومتىٰ نزلت؟ وأين نزلت؟

وقد ذكر الشاطبي من أسباب ترجيح قولهم: مباشرتهم للوقائع والنوازل، وتنزيل الوحي بالكتاب والسنة؛ فهم أقعد في فهم القرائن الحالية، وأعرف بأسباب التنزيل، ويدركون ما لا يدركه غيرهم بسبب ذلك، والشاهد يرىٰ ما لا يرىٰ الغائب... وقد شاهدوا من أسباب التكاليف وقرائن أحوالها ما لم يشاهده من بعدهم، ونقل قرائن الأحوال علىٰ ما هي عليه كالمتعذِّر؛ فلا بد من القول بأن فهمهم في الشريعة أتم وأحرىٰ بالتقديم[١].

٣- معرفتهم بلغة العرب وأساليبها:

نزل القرآن الكريم بلسان العرب، جاريًا علىٰ معهودهم في الكلام، وعادتهم في الخطاب، فكل من كان من لسان العرب متمكنًا كان للقرآن أشد فهمًا وأحسن إدراكًا، ولا يعلم أحد أفصح لسانًا وأسد

---

(١) ينظر: الموافقات (٣/ ١٢٨-١٣٢).

بيانًا وأقوم خطابًا من أهل القرون الأولىٰ المفضلة، وأولاهم في هذا الفضل والسبق صحابة رسول الله ﷺ، فلا يكون في الأمة من بعد القرون الأولىٰ أحد أفصح منهم لسانًا، فكل من جاء بعدهم فهو دونهم في الفصاحة والبيان والفهم والإدراك[١].

ويقرر الشاطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ سبب ترجيح أقوال الصحابة وفهمهم علىٰ غيرهم بقوله: "معرفتهم باللسان العربي، فإنهم عرب فصحاء، لم تتغير ألسنتهم، ولم تنزل عن رتبتها العليا فصاحتهم، فهم أعرف في فهم الكتاب والسنة من غيرهم، فإذا جاء عنهم قول أو عمل واقع موقع البيان صح اعتماده من هذه الجهة"[٢].

والمتأمل في تفاسير السلف يجدها جارية علىٰ وفق لغة العرب، قال الشاطبي: "وما نقل من فهم السلف الصالح في القرآن، فإنه كله جارٍ علىٰ ما تقتضي به العربية، وما تدل عليه الأدلة الشرعية"[٣].

٤- الوفاق العقدي والسلامة من اتباع الهوى والتعصبات المذهبية:

لقد ابتليت الأمة في العصور المتأخرة بكثرة الاختلاف في المعتقدات، والتفرق منشؤه كثرة الجهل وسوء القصد، وأما السلف فقد كانوا "أبرّ قلوبًا، وأعمق علمًا، وأقل تكلّفًا، وأقرب إلىٰ أن يوفَّقوا فيها لما لم نوفَّق له نحن؛ لما خصَّهم الله تعالىٰ به من توقّد الأذهان،

---

(١) ينظر: منهج الاستدلال علىٰ مسائل الاعتقاد (٢/ ٥٠٦).

(٢) الموافقات (٤/ ١٢٨).

(٣) المصدر نفسه (٤/ ٢٥٦).

وفصاحة اللسان، وسعة العلم، وسهولة الأخذ، وحسن الإدراك وسرعته، وقلّة المعارض أو عدمه، وحسن القصد، وتقوىٰ الرب تعالىٰ، فالعربية طبيعتهم وسليقتهم، والمعاني الصحيحة مركوزة في فطرهم وعقولهم، ولا حاجة بهم إلىٰ النظر في الإسناد وأحوال الرواة وعلل الحديث والجرح والتعديل، ولا إلىٰ النظر في قواعد الأصول وأوضاع الأصوليين، بل قد غنوا عن ذلك كله، فليس في حقهم إلا أمران: أحدهما: قال الله تعالىٰ كذا، وقال رسوله كذا، والثاني: معناه كذا وكذا، وهم أسعد الناس بهاتين المقدمتين، وأحظىٰ الأمة بهما"(١).

٥- قلة الخطأ في تفسيرهم وندرته:

المراد بالخطأ هنا: الاجتهادات الفردية من الواحد من السلف. والسبب في ندرة الخطأ راجع لاكتمال أدوات الاجتهاد لديهم، ومن تأمل في تفاسيرهم يجد أن ما يقع فيها من خطأ ليس مصدره الجهل والهوىٰ، فما يُستَنْكَر علىٰ الواحد منهم إنما هو اجتهاد أخطأ صاحبه فيه، فهو مأجور عليه، وخطؤه خارج عن حد الرأي المذموم المبني علىٰ الهوىٰ أو الجهل الذي ينال صاحبه الإثم(٢).

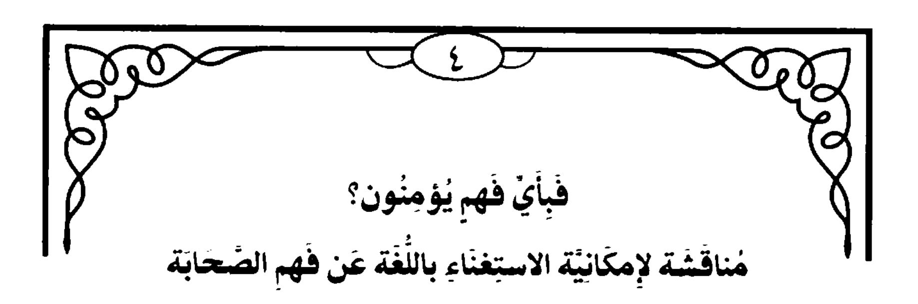
وصلىٰ الله وسلم وبارك علىٰ نبينا محمد، وعلىٰ آله وصحبه أجمعين(٣).

---

(١) أعلام الموقعين لابن القيم (٤/ ١٢٠).

(٢) ينظر: اختلاف السلف في التفسير، د. محمد صالح (ص ٥٠-٥١).

(٣) إعداد: فوزي بن عبد الصمد فطاني.



٤

فَبِأَيِّ فَهمٍ يُؤمِنُون؟

مُناقَشَة لإمكَانِيَّة الاستِغنَاءِ باللُّغَة عَن فَهمِ الصَّحَابَة

المقَـدِّمَـة:

من بداهة الأمور أن كلّ من أراد أن يستوضح قضيَّة أو أمرًا سيتجه للبحث عنه عند ذويه ومن ابتكره وشارك في صناعته، فمن أراد أن يستوعب أفكار أرسطو ذهب يستعرض نصوص أصحابه والفلاسفة من بعده، ومن أراد الاطلاع علىٰ دين النصرانية ذهب يدرس أقوال المسيح عليه السلام وتلاميذه والقساوسة من بعدهم، ومن أراد أن يعرف تاريخ العصور المظلمة سأل أهل التاريخ الأوربي، ومن أراد أن يعرف نظريَّات نيوتن وأينشتاين بحث عنها عند العلماء التجريبيين، ومن أراد أن يكشف أسرار تقنيةٍ ما سأل مخترعيها وصانعيها وحاورهم، ومن أراد أن يتعلَّم صنعة جالس حذَّاقها وحذا حذوهم، حتىٰ صار عندنا اليوم ما يُعرف بالتخصُّص، فأصبح لكلِّ شيءٍ متخصِّصون فيه متعمِّقون في دقائقه، لا يكاد يملك الخبرة في الشيء المتخصَّص فيه غيرهم.

ولكن ماذا عمَّن يريد أن يعرف الإسلام الحقَّ، ويفهم كتابه الكريم وتعاليم نبيِّه محمَّد ﷺ، يسأل من؟ ويقرأ لمن؟ ويستعين بفهم من؟

لا يكاد يستريب العاقل أن أوَّل من نرجع إليهم في ذلك هم أوَّلُ من نزل إليهم القرآن، وخاطبهم بلسانهم، وعاصروا أحداثه وقضاياه، فوعوه وامتثلوه، وحَكَم على عقائدهم وأقوالهم وأفعالهم وحكَّموه، ونهج لهم منهج الحياة فانتهجوه، حفظوا حروفه، وأقاموا حدوده، فكانوا حقًّا تجسيدا حقيقيا للإسلام.

ولكن ثمَّة من يزعم أنه يمكن الاستغناء عن الصحابة الكرام في فهم كلام الله تعالى وكلام رسوله ﷺ!! ويُكتفى في فهمهما بالاستناد على اللغة العربية وقواعدها!!

فهل يصحُّ قولهم هذا؟ وهل يمكن أن تكون اللغة بمجردها بديلًا عن فهم الصَّحابة للوحيين؟

هذا ما سنضعه على طاولة النقاش في هذه الورقة.

حال السَّلف مع فهم الصَّحابة رضي الله عنهم:

لم يزغ السَّلف الصَّالح عن هذه الحقيقة الفطريَّة البدهيَّة، فاعتمدوا في فهم كلام الله تعالى وكلام رسوله ﷺ على فهم تلاميذ رسول الله صلى الله عليه وأصحابه، بل كان الأخذ بفهم الصحابة ديدنهم وهجِّيراهم، وبه عُرفوا، وعليه عوَّلوا، وبه تعلَّموا، وإياه علَّموا.

فهذا حبر الأمة وترجمان القرآن عبد الله بن عبَّاس رضي الله عنهما رغم اجتماع ميزابي الشَّرف فيه (الصُّحبة والقرابة)، إلا أنه اختار أن يفهم

كلام الله تعالىٰ وكلام رسوله بفهم أشياخ الصَّحابة ممَّن سبقه في العلم والفهم، وبذل في ذلك كل البذل، وتحمَّل المشاق، وتجشَّم العناء؛ ليأخذ القرآن والسنة بفهم أولئك، وها هو يقول عن نفسه رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: "لما توفي رسول الله ﷺ قلت لرجل من الأنصار: يا فلان، هلم فلنسأل أصحاب النبي ﷺ، فإنهم اليوم كثير، فقال: واعجبًا لك يا ابن عباس! أترىٰ الناس يحتاجون إليك وفي الناس من أصحاب النبي ﷺ من ترىٰ؟! فترك ذلك، وأقبلتُ علىٰ المسألة، فإن كان ليبلغني الحديث عن الرجل فآتيه وهو قائل، فأتوسد ردائي علىٰ بابه، فتسفي الريح علىٰ وجهي التراب، فيخرج فيراني، فيقول: يا ابن عم رسول الله، ما جاء بك؟ ألا أرسلت إليَّ فآتيك؟! فأقول: لا، أنا أحق أن آتيك، فأسأله عن الحديث"[١].

وقد جلَّىٰ موقفه من هذه القضية حين ناقش الخوارج وناظرهم حيث قال: "أتيتكم من عند أصحاب النبي ﷺ المهاجرين والأنصار، ومن عند ابن عم النبي ﷺ وصهره، وعليهم نزل القرآن، فهم أعلم بتأويله منكم، وليس فيكم منهم أحد، لأبلغكم ما يقولون، وأبلغهم ما تقولون"[٢].

---

(١) رواه الدارمي (١/ ٤٦٧) برقم (٥٩٠)، والإمام أحمد في فضائل الصحابة (٢/ ٩٧٦) برقم (١٩٢٥)، وصحح محققاه إسناد الحديث.

(٢) أخرجه النسائي في الكبرىٰ (٨٥٢٢)، وصححه الضياء في المختارة (١٠/ ٤١٣-٤١٤).

ولأجل هذا المنهج القويم كان ابن عباس مقدَّمًا في الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ، ومقرَّبًا من مجلس أمير المؤمنين عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

وتتابع الرَّعيل الأول على هذا المنهج في فهم النصوص، فهذا عمر بن عبد العزيز (٦٨ه) -رحمه الله تعالى- ينصُّ على ذلك ويقول: "فارض لنفسك ما رضي به القوم لأنفسهم؛ فإنهم عن علم وقفوا، وببصر نافذ قد كفوا، ولهم كانوا على كشف الأمور أقوى، وبالفضل لو كان فيه أحرى، فلئن قلتم: أمرٌ حدث بعدهم، فما أحدثه بعدهم إلا من اتبع غير سنتهم، ورغب بنفسه عنهم، إنهم لهُمُ السابقون، فقد تكلموا منه بما يكفي، ووصفوا منه ما يشفي، فما دونهم مقصر، وما فوقهم مخسر، لقد قصر عنهم آخرون فضلوا، وإنهم بين ذلك لعلى هدى مستقيم"[(١)].

وهذا الإمام الشافعي (٢٠٤هـ) -رحمه الله تعالى- يبيِّن حالهم والواجب علينا تجاههم، فيقول: "علموا ما أراد رسول الله ﷺ عامًّا وخاصًّا، وعزمًا وإرشادًا، وعرفوا من سنته ما عرفنا وجهلنا، وهم فوقنا في كل علم واجتهاد وورع وعقل، وآراؤهم لنا أحمد وأولى بنا من رأينا عند أنفسنا، ومن أدركنا ممن يُرضى أو حُكيَ لنا عنه ببلدنا صاروا فيما لم يعلموا لرسول الله ﷺ فيه سنة إلى قولهم إن اجتمعوا، أو قول بعضهم إن تفرقوا، وهكذا نقول، ولم نخرج عن أقاويلهم، وإن قال أحدهم ولم يخالفه غيره أخذنا بقوله"[(٢)].

---

(١) ينظر: الشريعة للآجري (٢/ ٩٣٠).

(٢) ينظر: أعلام الموقعين لابن القيم (١/ ٩٠).

وفي ذات القضية يقول ابن تيمية *رحمه الله تعالى*: "معرفة ما أراد الله ورسوله ﷺ بألفاظ الكتاب والسنة؛ بأن يعرفوا لغة القرآن التي بها نزل، وما قاله الصحابة والتابعون لهم بإحسان، وسائر علماء المسلمين في معاني تلك الألفاظ؛ فإن الرسول لما خاطبهم بالكتاب والسنة عرّفهم ما أراد بتلك الألفاظ، وكانت معرفة الصحابة لمعاني القرآن أكمل من حفظهم لحروفه، وقد بلّغوا تلك المعاني إلىٰ التابعين أعظم مما بلغوا حروفه؛ فإن المعاني العامة التي يحتاج إليها عموم المسلمين مثل معنىٰ التوحيد، ومعنىٰ الواحد والأحد، والإيمان والإسلام، ونحو ذلك، كان جميع الصحابة يعرفون ما أحب الله ورسوله ﷺ من معرفته"[1].

وما كانوا ليُعرضوا عن فهم الصَّحابة ورسولُ الله ﷺ وسم أهل السُّنة بأنهم يكونون علىٰ ما كان عليه أصحابه حيث أجاب عن شعارهم حين سئل عنهم: «**ما أنا عليه وأصحابي**»[2].

فالأخذ بفهم الصحابة هو مقتضىٰ العقل، وهو ما انتهجه السَّلف في حياتهم، وهو المنهج الحق الصَّحيح في فهم كلام الله تعالىٰ وكلام رسوله ﷺ.

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (١٧/ ٣٥٣).

(٢) رواه الترمذي (٢٦٤١)، وقال: "حديث مفسر غريب، لا نعرفه مثل هذا إلا من هذا الوجه"، وحسَّنه ابن العربي في أحكام القرآن (٣/ ٤٣٢)، والعراقي في تخريج الإحياء (٣/ ٢٨٤).

ولسنا نطيل القول في حجية فهم الصحابة؛ فقد تطرَّقنا له في مقالات أخر[١]، وإنما قدَّمنا بها لأهميتها.

بيد أن نقاشنا في هذه الورقة مع من يريد الاستغناء عن فهم الصَّحابة والاعتماد على اللغة في فهم الوحيين.

فماذا لو لم نَعمل بفهم الصحابة؟

بأيِّ شيءٍ سنفهم النصوص؟

هل يمكننا الاستغناء بأهل اللغة عن فهم الصَّحابة؟

فيقال أوَّلًا: إن هذا السُّؤال مشتمل على مغالطة منطقيَّة؛ فإن الصحابة الذين ننادي بالرجوع لفهمهم هم أهل اللغة والبيان الذين يُحتجُّ بلغتهم، وإن لم يكونوا هم فمن هم؟! إن لم يكن القرشيُّون وأهل مكة والمدينة من الصَّحابة هم العرب فمن هم؟!

إن لم يكن أبو بكر القرشي التميمي[٢] وعمر بن الخطَّاب القرشي العدوي وعثمان بن عفان القرشي الأموي وعلي بن أبي طالب القرشي الهاشمي وعبد الله بن مسعود الهذلي وغيرهم من الصَّحابة من أهل اللغة فمن هم أهل اللغة إذن؟!

---

(١) ينظر: مقال: فهم الصحابة المدلول والحجية https://salafcenter.org/656/، ومقال: معيارية فهم الصحابة للنصوص الشرعية: https://salafcenter.org/278/.

(٢) وللاستزادة ينظر: من بلاغة الخطاب عند أبي بكر الصديق: https://platform.almanhal.com/Files/2/72142، ونماذج من فصاحة الصحابة: https://dorar.net/akhlaq/1163.

وهؤلاء أجلُّ وأرفع من أن نحتاج إلىٰ الاستشهاد لهم من كلام غيرهم، ولكن هذا الأحنف بن قيس التميمي يقول: "سمعت خطبة أبي بكرٍ الصديق وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالبٍ رضي الله عنهم، والخلفاء هلم جرًّا إلىٰ يومي هذا، فما سمعت الكلام من فم مخلوقٍ أفخم ولا أحسن منه من في عائشة رضي الله عنها"(١).

ناهيك عمَّن إليه المنتهىٰ في الفصاحة والبيان من أمثال: لبيد بن ربيعة وحسان وابن رواحة وكعب بن مالك وكعب بن زهير رضوان الله عليهم أجمعين، وناهيك أيضًا عمَّن اشتهر منهم بتفسير كلام الله وكلام رسوله ﷺ كابن عبَّاس الذي جمع أطراف الشَّرف بين جنبيه فصاحةً وعلمًا ونسبًا وعبادةً وجاهًا، وحفظه واستحضاره لأشعار العرب في جواباته لنافع بن الأزرق خير شاهدٍ علىٰ ما نقول.

ولهذا قال من قال من العلماء: إن الصحابة أعمق فهمًا لكلام الله تعالىٰ وكلام رسوله ﷺ من كلِّ من بعدهم؛ لأنه بلسانهم نزل، ولأنهم عاصروا الأحداث التي فيها حدثت، كما سبق قول الإمام الشافعي -رحمه الله تعالى-: "عَلِموا ما أراد رسول الله ﷺ عامًّا وخاصًّا، وعزمًا وإرشادًا، وعرفوا من سنته ما عرفنا وجهلنا، وهم فوقنا في كل علم واجتهاد، وورع وعقل"(٢).

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٤/ ١٢) برقم (٦٧٣٢)، وسكت عنه الذهبي في التلخيص، ورواه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٨/ ١٥٢٢) برقم (٢٧٦٧).

(٢) ينظر: أعلام الموقعين لابن القيم (١/ ٩٠).

بل إنهم بلغوا شأوًا بعيد المنال، حتىٰ إن كثيرًا ممَّا فهموه -رضوان الله عليهم- يخفىٰ علىٰ من بعدهم سواء في كلام الله تعالىٰ أو كلام رسوله ﷺ، يقول ابن تيمية -رحمه الله تعالى-: "للصحابة فهمٌ في القرآن يخفىٰ علىٰ أكثر المتأخرين، ومعرفةٌ بأمور من السنة لا يعرفها أكثر المتأخرين"(١).

ويقرر الشاطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذلك في موافقاته: "وأما بيان الصحابة فإن أجمعوا علىٰ ما بيَّنوه فلا إشكال في صحته...، وإن لم يُجمعوا عليه؛ فهل يكون بيانهم حجة أم لا؟ هذا فيه نظر وتفصيل، ولكنهم يترجَّح الاعتماد عليهم في البيان من وجهين:

- أحدهما: معرفتهم باللسان العربي؛ فإنهم عرب فصحاء، لم تتغير ألسنتهم ولم تنزل عن رتبتها العليا فصاحتهم؛ فهم أعرف في فهم الكتاب والسنة من غيرهم، فإذا جاء عنهم قول أو عمل واقع موقع البيان؛ صح اعتماده من هذه الجهة.
- والثاني: مباشرتهم للوقائع والنوازل، وتنزيل الوحي بالكتاب والسنة؛ فهم أقعد في فهم القرائن الحالية وأعرف بأسباب التنزيل، ويدركون ما لا يدركه غيرهم بسبب ذلك، والشاهد يرىٰ ما لا يرىٰ الغائب.

فمتىٰ جاء عنهم تقييد بعض المطلقات، أو تخصيص بعض العمومات؛ فالعمل عليه صواب، وهذا إن لم ينقل عن أحد منهم خلاف في المسألة، فإن خالف بعضهم فالمسألة اجتهادية"(٢).

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (١٩/ ٢٠).

(٢) الموافقات (٤/ ١٢٧).

إلىٰ هنا نكاد ننتهي من الجواب علىٰ ذلك الإشكال الذي أوردناه، فهذا في الحقيقة كافٍ لدحضه، وإغلاق ملفِّ القضيَّة.

ولكن دعنا نتنزَّل قليلًا، ونساير من يقول بأن اللغة قد تغنينا عن فهم الصَّحابة في إدراك معاني النصوص الشرعية.

إن أقصىٰ ما يستطيع من يدَّعي ذلك أن يأخذ رجل اللغة عن بعض العرب بأن يعيش بين أظهرهم ويتكلَّم بكلامهم، ويناقش نقاشاتهم، ويحاور بأمثلتهم وحججهم، ويستعمل مفرداتهم وتركيباتهم، ثم بعد ذلك يقيس بين تلك اللغة ولغة القرآن. ولا يصفو له ذلك إلا إذا اتحد المقصود باللفظين في المعنىٰ دون زيادة أو نقص.

ولا يختلف أحدٌ تذوَّق لغة الوحي وعرف مراميه ومعانيه أنها لغة رفيعة لا تكاد تقاربها لغة، فضلًا عن أن تساويها أو تعلو عليها، فإعجاز القرآن لا يكاد يخفىٰ علىٰ من استبصره، فإنها جمعت العقلاني والوجداني في آن، كما أنها ألفت بين الإيجاز والإسهاب في إيوان، وضمَّت إلىٰ رونق لغتها رصانةً وقوةً لا يبلغها دهاة الأقلام، ووضِعت كل سكنة وحركة في أكمامها، فهي ملتقىٰ نهايات الفضيلة البيانية كلها علىٰ تباعد ما بين أطرافها(١).

"فجنس ما دل علىٰ القرآن ليس من جنس ما يتخاطب به الناس في عادتهم، وإن كان بينهما قدر مشترك، فإن الرسول جاءهم بمعان

---

(١) ينظر: النبأ العظيم د. محمد دراز (ص: ١٠٦).

غيبية لم يكونوا يعرفونها، وأمرهم بأفعال لم يكونوا يعرفونها، فإذا عبر عنها بلغتهم كان بين ما عناه وبين معاني تلك الألفاظ قدرٌ مشترك ولم تكن مساوية لها، بل تلك الزيادة التي هي من خصائص النبوة لا تعرف إلا منه"[١].

فأنَّىٰ لقياس أولئك أن يتمَّ؟!

وأنىٰ لهم أن يدركوا جميع ما أراد القرآن من معان بقياسهم ذلك؟!

وهذا ما خصَّ به حبرُ الأمة العلماءَ حين قال: "التفسير علىٰ أربعة أوجه: وجه تعرفه العرب من كلامها، وتفسير لا يعذر أحد بجهالته، وتفسير يعلمه العلماء، وتفسير لا يعلمه إلا الله"[٢]. فتأمل كيف فرَّق بين ما يُدرك باللغة، وما يُدركه العلماء.

إن ما ذكرناه سابقًا هو ما يعتري من باشر أهل العربية، وتذوَّق لغتهم بسمعه، وشمَّها بأنف بيانه، وأخذ عنهم اللغة كفاحًا[٣]. ودون هذه المرتبة العالية مراتب، تقف عندها ركاب المدَّعين لفهم الوحي باللغة وتجاوز الصحابة الكرام رضوان الله عليهم.

المرتبة الثانية: أن يأخذها عمَّن باشر بعض العرب وسمع منهم شعرهم ونثرهم، فهو حينئذٍ يأخذها نقلًا عمَّن باشر العرب، وسل أهل النَّقل عن عيوب النَّقل وعلله وانقطاعاته وسقطاته وتخليطاته.

---

(١) جواب الاعتراضات المصرية لابن تيمية (ص: ١٧).

(٢) ينظر: تفسير الطبري (١/ ٧٠)، تفسير ابن كثير ت: السلامة (١/ ١٤).

(٣) أي: مباشرة.

فإن كلَّ ما توخَّاه علماء الحديث النبوي من عيوب النَّقل وذادوه عن سنة المصطفىٰ ﷺ سيعتري هذا النَّقل ويعيبه، بل وأكثر من ذلك؛ فكيف واللغة غير الحديث؟! فإن المولىٰ ﷻ سخَّر لدينه ووحيه القرآني والنبوي من يصونه ويحفظه، ويفني دونه الأموال والأعمار، فرجال الحديث أعجوبةٌ من أعاجيب الزَّمان، ولا مقارنة بين ناقلي اللغة وناقلي الحديث، فشتان بينهما شتان.

وحينئذٍ يكون الأخذ بقول من اشتغل بالنصوص ولغتها ومعانيها مباشرةً أقوىٰ برهانًا وأقصر طريقًا وأقرب لنيل المراد ممَّن أخذ اللغة عن ناقليها، ثم قايس بها النصوص القرآنية والنبوية.

المرتبة الثالثة:

أن يأخذ اللغة ممَّن لقيَ من نقل عن العرب الأقحاح، وذكر أنه فهم معنىٰ قولهم، وهذا كحال أصحاب المعاجم الذين يشرحون كلام العرب بعباراتهم، فالأصمعي مثلًا حين جلس مع الأعراب وأهل البادية هو من هذا الصِّنف؛ فهو قد سمع اللُّغة ممن لقي من نقل عن العرب الذين يُحتج بهم.

وهذا أبعد ممَّا سبقه، وآفاته لا توازىٰ بآفات ما سبقه، واحتمالات الخطأ فيه أكثر، فيحتمل أن ذلك الشارح أخطأ في فهم من نقل عنهم، أو يكون قد فَهم منهم ولكن لم يهتد إلىٰ العبارة الصحيحة، أو عبَّر بما هو أقلُّ من المعنىٰ المراد، إلىٰ غيرها من العيوب والاحتمالات.

المرتبة الرابعة: أن ينقل عن كتب هؤلاء، فتطول السلسلة، ويعتريها من الآفات كثير، والسنة وفهم الصحابة والسَّلف أولىٰ منها وأقوىٰ بلا شك.

وأقل من هذا كلِّه أن يأخذ اللغة بالقياس النحوي والتصريفي، ويعتريه ما يعتري سابقه وأكثر.

فنحن بين خيارين في فهم النصِّ إذًا:

إما أن نأخذ بفهم الصحابة ونختصر الطريق، ونوقن بصحة الفهم وصحَّة المعنىٰ ودقة العبارة، إلىٰ جانب مواكبة السياق الذي قيل فيه النص، ونؤمن بكلام الله تعالىٰ ونصدِّقه ونعمل به.

وإما أن نستبدل الأدنىٰ بالذي هو خير، ونأخذ بفهم من هو أَضعف منهم بمراحل في اللغة، وندخل في عالم الظنون والاحتمالات، وتبقىٰ القلوب بين الشكِّ والتردُّدات، إن أصبنا مراد الله ورسوله مرةً أخطأناه مرَّات، وأودىٰ بعقولنا في مهاوي التحريف، كما هو حال أهل الضلال[١].

أفغير هذين الطّريقين من طريق؟!

نعم هناك طريقٌ ثالث، ولكنه طريق من حكم علىٰ عقله بالإعدام، وعلىٰ اللغة بالعبثية والإخلال، وعلىٰ كلام الله وكلام رسوله بالعيِّ والإلغاز!!

---

(١) ينظر: جواب الاعتراضات المصرية لابن تيمية (ص: ١٩).

وهذا حال من زعم أن نصوص القرآن والسُّنة لا معنىٰ لها، سواء أحكم بذلك علىٰ كلِّ النصوص أو بعضها، وهي حال تأباها العقول النيِّرة والفطر السَّوية، ولا يتقبَّلها إلا من شابه شائبة البهائم والعجماوات؛ ولذا نجد المولىٰ ﷻ استنكرها واستهجنها في مواضع كثيرة، فوصف الله تعالىٰ المؤمنين بأنهم: ﴿إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ [الفرقان: ٧٣]، ووصف الكافرين بقوله تعالىٰ: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١]، وقال تعالىٰ: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ﴾ [البقرة: ٧]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا﴾ [الأنعام: ٢٥]، وأمر ﷻ بفهم كلامه سبحانه وتدبُّره والعمل به؛ قال تعالىٰ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤].

وبيَّن ﷻ أن هذا الكتاب نور وهدىً للعالمين، وأنه منهاجٌ ودستورٌ للمسلمين، وأنه جعله في أعلىٰ درجات الوضوح والبيان، وفي أوج الفصاحة والحجية والبرهان، وما كان ذلك الوضوح والبيان إلا لفهمه وتدبُّره والاتعاظ به وتطبيقه واقعًا؛ ليتحقق التقوىٰ ويسود العدل والخير بين البشرية جمعاء، وكلَّما ورد ذكر بيان القرآن وفصاحته عقَّبه المولىٰ بهذه العلة، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢]، وقال تعالىٰ: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى

عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [الزمر: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴾ [الأحقاف: ١٢] وقال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴾ [طه: ١١٣]، وقال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِي ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي ٱلسَّعِيرِ ﴾ [الشورى: ٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُواْ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ﴾ [فصلت: ٤٤].

وما ذكرناه من الطَّريقين المذمومين هما مسلك أهل الزيغ في كلِّ عصر، وكلا المسلكين قد سلكهما أخبث خلق الله على مر العصور، كما حكى الله عنهم: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ [البقرة: ٧٨، ٧٩]، وقال عنهم: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓاْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ [البقرة: ٧٥-٧٧].

وهو أيضًا حال المبتدعة في القرون الأولىٰ كما ذكر ذلك عبد العزيز الكناني في مناظرته الشهيرة لبشر المريسي حين ناقشه في بعض مسائل النصوص وفهم الصحابة لها، فأجاب وهو في مجلس المناظرة عند المأمون: "يا أمير المؤمنين أطال الله بقاك، إنه يحب أن يخطب ويهذي بما لا أعقله، ولا أسمعه، ولا ألتفت إليه، ولا أتىٰ بحجة، ولا أقبل من هذا شيئًا". فاستنكر عليه الإمام الكناني -رحمه الله تعالى- ادِّعاءه العلم مع عدم علمه بقول الله ورسوله وبفهم السَّلف والعلماء رضوان الله عليهم.

قال رحمه الله تعالى: "فقلت: يا أمير المؤمنين أطال الله بقاك، من لا يعقل عن الله ما خاطب به نبيه ﷺ، وما علمه لعباده المؤمنين في كتابه، ولا يعلم ما أراد الله بكلامه وقوله، يدعي العلم، ويحتج بالمقالات والمذاهب ويدعو الناس إلىٰ البدع والضلالات؟!".

ولكن المبتدع تمادىٰ في غيِّه، وادَّعىٰ أنه يفهم النُّصوص كفهم الإمام الكناني رحمه الله تعالى، فقال: "أنا وأنت في هذا سواء، أنت تنتزع بآيات من القرآن لا تعلم تفسيرها ولا تأويلها، وأنا أرد ذلك وأدفعه حتىٰ تأتي بشيء أفهمه وأعقله".

فجلىٰ الإمام له الفرقان بين من فهم القرآن والسنة بفهم السلف وبين من لم يفهم، وقال: "يا أمير المؤمنين، قد سمعت كلام بشر وتسويته فيما بيني وبينه، ولقد فرق الله فيما بيني وبينه، وأخبر أنا علىٰ غير السواء.

قال أمير المؤمنين: وأين ذلك لك من كتاب الله ﷻ؟

قلت [الإمام الكناني]: قال الله ﷻ: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الرعد: ١٩]، فأنا -والله يا أمير المؤمنين- أعلم أن الذي أُنزل عليه ﷺ هو الحق، وأومن به، وبشرٌ يشهد علىٰ نفسه أنه لا يعلم ذلك ولا يعقله ولا يقبله، ولا هو مما يقوم لي به عليه حجة، فلم يقل كما قال الله ﷻ، ولا كما علَّم نبيَّه ﷺ أن يقوله، ولا كما قال موسىٰ عليه السلام، ولا كما قالت الملائكة، ولا كما قال المؤمنون، ولا كما قال أهل الكتاب، ولقد أخبر الله ﷻ عن جهله، وأزال عنه التذكرة، وأخرجه عن جملة أولىٰ الألباب"[1].

ختامًا: أيها الفطن اللبيب، تدبُّر كلام لله تعالىٰ وكلام رسوله ﷺ وفهمه بفهم الصحابة والسَّلف هو ما أمر به الله ورسوله أوَّلًا، وهو ما تنادي به الفطرة أيضًا، فضلًا عن كون العلماء الأفذاذ ما بلغوا إلا بالسير عليه، فضلًا عن كونه أسلم الطرق وأعلمها وأحكمها، بل لا سلامة إلا به، ولا يبلغ المطلوب إلا من سلكه، فما لنا ابتعدنا عن هديه وهو الأقوم؟! ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩][2].



(١) الحيدة والاعتذار (ص: ٤٢).

(٢) إعداد: عمار بن محمد الأركاني.

التقسيم المنكَر لسُنة سيِّد البشر
-سنة النبوة وسنة الرسالة!!-

قسَّم المحدثون السنة باعتبارات متنوِّعة، فمن حيث القبولُ والرد ينقسم الحديث إلىٰ مقبول (الصحيح والحسن) ومردود (الضعيف والمتروك والموضوع...)، يقول الشيخ صبحي الصالح: "الحديث إما مقبول وهو الصحيح، وإما مردود وهو الضعيف، وهذا هو التقسيم الطبيعي الذي تندرج تحت نوعيه أقسام كثيرة أخرىٰ تتفاوت صحة وضعفًا؛ بتفاوت أحوال الرواة وأحوال متون الأحاديث"(١).

كما قسَّموا السنة من حيث حقيقتها إلىٰ: قولية وفعلية ووصفيَّة وتقريرية.

وهذا التقسيم هو الذي عليه مدار حديثنا، والمتأمل فيه يجد أن العلماء قد حاولوا حصر سنته ﷺ كلها؛ فهو إما أن يقول قولًا، أو يفعل فعلًا، أو يوصف في خَلقِه أو خُلُقه، أو يحدث حدثٌ ما أو موقف ما أمامه أو في عصره ثم يقرُّه أو ينكره؛ وذلك لأنه ﷺ مبيِّن عن الله، وسُنَّته شارحة للقرآن مبينة المراد منه، قال الأوزاعي: "الكتاب أحوج إلىٰ السُّنة من السُّنَّة إلىٰ القرآن"، قال ابن عبد البر: "يريد: أنها تقضي

---

(١) علوم الحديث ومصطلحه (ص: ١٤١).

عليه، وتبين المراد منه"(١).

وقد أمرنا الله تعالىٰ باتباع سنة نبيه ﷺ كما في قوله: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧]، بل جعل ﷻ طاعة نبيه من طاعته فقال تعالىٰ: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

فكان ﷺ إمامًا للمتقين، وقدوة للصالحين، علىٰ طريقه يسير ركب أصحابه والمتبعون لهم بإحسان، ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١].

ومن العجب العاجب -والمؤسف أيضًا- أن يتصدَّىٰ لردِّ هذا التقسيم أحد المتطفّلين علىٰ مائدة السنَّة؛ بحجة أن هذا التعريف للسنة لم يرد عن النبي ﷺ نفسه!!

يقول محمد شحرور: "من هنا يأتي التعريف الخاطئ -برأينا- للسنة النبوية بأنها: كل ما صدر عن النبي ﷺ من قول ومن فعل أو أمر أو نهي أو إقرار. علمًا بأن هذا التعريف للسنة ليس تعريف النبي ﷺ نفسه، وبالتالي فهو قابل للنقاش والأخذ والرد"(٢). ويؤكِّد قائلًا: "علمًا بأن النبي ﷺ وصحابته لم يعرِّفوا السُّنة بهذا الشكل"(٣).

(١) جامع بيان العلم وفضله (٢/ ١١٩٣-١١٩٤).

(٢) الكتاب والقرآن، قراءة معاصرة (ص: ٥٤٨).

(٣) المصدر السابق نفسه.

التعريف المختار للسُّنة لدى شحرور:

أوجد شحرور مخرجًا لهذه المعضلة في تعريف السُّنة، فقال: "لنضع الآن تعريفًا معاصرًا للسنة، وهو: السنة هي منهج في تطبيق أحكام أمِّ الكتاب بسهولة ويسر، دون الخروج عن حدود الله في أمور الحدود أو وضع حدود عرفية مرحلية في بقية الأمور، مع الأخذ بعين الاعتبار عالم الحقيقة -الزمان والمكان والشروط الموضوعية التي تطبق فيها هذه الأحكام- معتمدين علىٰ قوله تعالىٰ: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقوله: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨] فالسنة جاءت من: سن، وتعني في اللسان العربي: اليسر والجريان بسهولة، كقولنا: ماء مسنون، أي: يجري بسهولة"(١).

وهكذا نجد شحرورًا يبرر فهمه للسُّنة بالآيتين الكريمتين وبفهمه للغة العربية، ومقصوده من ذلك -كما سيأتي- أن نطوي بعجلة الحركة والجريان زمان السُّنة ومكانها. فتكون السُّنة بناء علىٰ هذا القول لا تتجاوز البيئة والمجتمع الذي عاش فيه ﷺ مكانيًّا! ولا تتجاوز القرن السابع الميلادي زمانيًّا!!

وبالرجوع إلىٰ كتب اللغة نجد أن شحرورًا قد اعتمد علىٰ "مقاييس اللغة" لابن فارس، واعتبره مرجعًا مهمًّا يستند إليه في تحديد فروق معاني الألفاظ، لا سيما وهو ممن ينفي وقوع الترادف في اللغة.

(١) المصدر السابق نفسه.

يقول ابن فارس: "السين والنون أصلٌ واحد مطرد، وهو: جريَان الشيء واطرادُهُ في سهولة، والأصل قولهم: سَنَنْت الماءَ علىٰ وجهي أَسُنُّهُ سَنًّا؛ إذا أرسلته إرسالًا. ثمَّ اشتُقَّ منه: رجل مسنون الوجه، كأنَّ اللحم قد سُنَّ علىٰ وجهه. والحَمَأُ المسنون من ذلك، كأنه قد صُبَّ صَبًّا. ومما اشتقَّ منه: السُّنَّة، وهي السّيرة. وسُنَّة رسول الله عليه السلام: سِيرته"[١].

وإشكالية نص ابن فارس التي تجاوزها شحرور -لأنها لا تخدمه- تكمن في قوله: "جريان الشيء واطراده في سهولة"؛ إذ تجاوز كلمة الاطراد، وأخذ لفظة الجريان والسهولة.

والاطراد في اللغة: من قولك: اطَّرَدَ الأمرُ، إذا استقام[٢]. واطّرد الشيء: تابع بعضه بعضًا[٣]. ويقول ابن فارس: "اطرَدَ الأمر: استقام. وكلُّ شيءٍ امتدَّ فهذا قياسُهُ"[٤].

فالاطراد علىٰ هذا: استقامة، والاستقامة علىٰ الشيء يعني عدم التغيير والتبديل فيه، وهكذا نجد شحرورًا يمارس الانتقائية والتحكم وعدم الموضوعية في تناول القضايا اللغوية؛ مما يضعه في محل الاتهام وفقدان الثقة بقوله، وبالتالي فساد النتيجة التي توصَّل إليها، وهي قوله:

---

(١) مقاييس اللغة (٣/ ٦٠-٦١).

(٢) ينظر: الصحاح (٢/ ٥٠٢).

(٣) ينظر: شمس العلوم، للحميري (٧/ ٤١٠٣).

(٤) مقاييس اللغة (٣/ ٤٥٦).

"وقد انتهت المعركة مع الأسف بانتصار التيار الأول، وما زلنا نعيش مآسيها وخيبتها حتىٰ يومنا هذا، حيث أصبح التيار الأول يسمِّي نفسه: أهل السنة والجماعة، وانتصار التيار الأول قتل الفكر الحرَّ النقدي عند الناس؛ مما أدىٰ إلىٰ استسلامهم؛ حيث استلم الفقهاء قيادة الناس تحت عنوان: أهل السنة والجماعة، ومات الفكر النقدي. ومنذ ذلك الحين أصبح الفقه والسلطة توأمان بغضِّ النظر عن ماهية هذه السلطة، وطنية أم غير وطنية، عربية أم غير عربية.

هكذا يظهر لماذا كانت الحاجة الملحَّة إلىٰ علم الحديث؛ حيث تم ظهور علم الحديث في خضم هذه المعركة حتىٰ أصبحت السُّنة بمفهومها وتعريفها التقليدي الفقهي هي السيف المسلَّط علىٰ رأس كل فكر حرٍّ نيِّر ونقدي، وأصبح الظنّ عند المسلمين أن محمدًا ﷺ حلَّ كلَّ مشاكل الناس من وفاته إلىٰ أن تقوم الساعة"!![1].

فيا لله! ما أجرأه علىٰ نبينا محمد ﷺ وعلىٰ سنته!!!

إن تصوير النتيجة للقارئ بهذه الصورة: أنها معركة استلم فيها الفقهاء زمام الأمور، وصارت السُّنة سيفًا مسلطًا علىٰ رأس كل فكر حرٍّ، وتحقير كونها تحلّ كل مشاكل الناس إلىٰ يوم القيامة، يراد منه: تحجيم دور السُّنة، والقول بتاريخيتها، لإبعادها وإسقاطها من حياة المسلمين.

(١) الكتاب والقرآن (ص: ٥٦٩).

فمنذ متىٰ والسنة كانت سيفًا مسلطًا علىٰ رؤوس أصحاب الفكر الحر؟!

ومنذ متىٰ كان اتباع السنة سببَ المآسي والخيبات؟!

ألم يقرأ في كتب الآداب والأخلاق، وما احتوته من الأحاديث الدالة علىٰ التحضّر والرقي بقيم الإنسان؟!

أرسل الله ﷻ رسوله محمدًا ﷺ رحمة للعالمين، لا سيفًا مسلطًا علىٰ المساكين، بل تحت ظل الإسلام عرف العالم قيمة العدل في الحروب والنكبات، وإعطاء كل ذي حقٍّ حقه، واحترام الكبار والعطف علىٰ الصغار، ومكارم الأخلاق. لقد شهد الأعداء بذلك حتىٰ في الحروب، وقد سجل التاريخ مقولة الفيلسوف الفرنسي جوستاف لوبون الشهيرة: "إن العالم لم يعلم فاتحًا أرحم من العرب"(١).

يقول المستشرق ليوبولد فايس (محمد أسد) منصفًا السُّنة: "لقد كانت السُّنة مفتاحًا لفهم النهضة الإسلامية منذ أكثر من ثلاثة عشر قرنًا، فلماذا لا تكون مفتاحًا لفهم انحلالنا الحاضر؟! إن العمل بسنة رسول الله ﷺ هو عمل علىٰ حفظ كيان الإسلام وعلىٰ تقدُّمه، وإن ترك السنة هو انحلال الإسلام. لقد كانت السنة الهيكل الحديدي الذي قام عليه صرح الإسلام، وإنك إذا أزلت هيكل بناء ما أَفيُدهِشُكَ

---

(١) انظر: البرهان علىٰ سلامة القرآن، محمد سعدي (ص: ٤).

أن يتقوَّض ذلك البناء كأنه بيت من ورق؟!"[١].

تقسيم محمد شحرور للسنة وبيان العوار فيها:

والآن نأتي إلىٰ التقسيم المنكر المخترَع والمبتدَع للسنة النبوية، والذي تولىٰ كبره محمد شحرور، وشحرور له شغف بالتقسيمات، وقد سبق له أن قسَّم آيات القرآن الكريم إلىٰ ثلاثة أقسام[٢]، وهو تقسيم باطل؛ لما بني عليه من المفاسد في عدم الانقياد لأوامر الله ﷻ وطاعته، لقد قسَّم شحرور السُّنة إلىٰ قسمين عجيبين، وهما: سنة النبوة، وسنة الرسالة.

فالقسم الأول: سنة النبوة: وهي تعليمات جاءت إلىٰ النبي ﷺ بمقام النبوة وليست بمقام الرسالة بقوله: (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ)؛ وذلك لتبيان أنها تعليمات خاصة بالنبي ﷺ، أو تعليمات مرحلية جاءت لحقبة معينة، مثل: توزيع الغنائم، أو تعليمات عامة للمسلمين ولكنها ليست تشريعات[٣]، وهي الأحاديث التي تتعلق بالسلوكيات العامة والاجتماعية، فلها أهمية تاريخية فقط، وهي غير ملزمة لأحد![٤]، أي: ليس لها علاقة بالحلال والحرام إطلاقًا!![٥].

---

(١) الإسلام علىٰ مفترق الطرق (ص: ٨٧).

(٢) انظر: الكتاب والقرآن (ص: ٣٧)، والرد عليه من خلال هذا الرابط: https://salafcenter.org/2957/.

(٣) الكتاب والقرآن (ص: ٥٢٦).

(٤) المصدر نفسه (ص: ٥٣٦).

(٥) المصدر نفسه (ص: ٥٥٠).

الخلاصة: أن سنة النبوة غير ملزِمة، ولها أهمية تاريخية!!

القسم الثاني: سنة الرسالة: وقد بيّن شحرور أن القرآن الكريم يحتوي على رسالة ونبوة، ومقصوده بالرسالة: هي مجموعة التعليمات التي يجب على الإنسان التقيد بها من عبادات، ومعاملات، وأخلاق، والحلال والحرام، وهي مناط التكليف.

وقد استنبط ذلك من خلال خطاب الله لرسوله، يقول: "فالنبوة علوم والرسالة أحكام وتعليمات، حيث إن الطاعة جاءت للرسالة ولم تأت للنبوة، وليس في الكتاب أي آية تقول: (وأطيعوا النبيَّ)، بل هناك آيات تقول: ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾"[1].

وهل كل سُنة الرسالة ملزِمة؟!

سبق أن أجاب شحرور: أن سُنة النبوة ليست ملزِمة، إلا أنه قد يتبادر إلى الذهن أن سُنة الرسالة ملزِمة، وهذا غير صحيح عنده!! لذا يقول عن التشريعات: "هي من مقام الرسالة، إلا أن القرآن ليس من الرسالة!"[2].

من هنا نجده ينطلق إلى تقسيم آخر لسنة الرسالة، ويميِّز بين نوعين من الطاعة في مقام الرسالة، وهما: الطاعة المتصلة، والطاعة المنفصلة.

---

(١) المصدر نفسه (ص: ٥٥٠).

(٢) المصدر نفسه (ص: ٥٣٧).

أ- الطاعة المتصلة: يقصد أن يأتي الأمر في القرآن بطاعة النبي متصلة بطاعة الله؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٢]، وفي قوله: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ٣٢]، وقوله: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩].

ويقول: "وبما أن الله حي باق وقد دمج طاعة الرسول مع طاعة الله في طاعة واحدة، ففي هذه الحالات تصبح طاعة الرسول مع طاعة الله في حياته وبعد مماته. هذه الطاعة جاءت حصرًا في الحدود والعبادات والأخلاق (الصراط المستقيم)"[١].

والنتيجة: أن الطاعة المتصلة محصورة بالحدود والعبادات والأخلاق فقط، وهي ليست ثابتة، بل متحركة تتحرك بين الحدود من الحد الأدنى إلى الحد الأعلى.

الحد الأدنى والحد الأعلى في نظر شحرور:

وتوضيح ذلك: أن مقصوده بـ(الحدود) ليس الحدود الشرعية؛ كحد القصاص والزنا والخمر... بل الخط البياني الذي يتراوح بين الحد الأدنى والحد الأعلى. كما في الأمثلة التالية:

---

(١) المصدر نفسه (ص: ٥٥٠-٥٥١).

الحدود فيما يتعلق بالصلاة:

قرر شحرور أن الحد الأدنى للمسلم هو أن يصلي ركعتين في اليوم، بدلًا من سبع عشرة ركعة!! وهذا اجتهاد في أعظم أركان الإسلام، وهو عمود الدين(١).

الحدود في لباس المرأة:

تتأرجح ما بين حدود الله وحدود رسوله؛ أي: ما بين العري، وما بين ستر الجسد عدا الوجه والكفين.

يرى شحرور أن لباس المرأة وضع له الرسول حدًّا أعلى: وهو "كل المرأة عورة إلا وجهها وكفيها"، بالتالي يقول: "إذا خرجت المرأة عارية في الطريق كما خلقها الله فقد تعدَّت حدود الله في اللباس، وإذا خرجت مغطاة تمامًا -يدخل في غطائها الوجه والكفان- فقد خرجت عن حدود رسوله. ولباس المرأة المسلمة هو لباس حسب الأعراف، ويتراوح بين اللباس الداخلي وبين تغطية الجسم ما عدا الوجه والكفين. وهكذا نرى أن لباس معظم نساء أهل الأرض هو ضمن حدود الله ورسوله"!(٢).

وإن كان الفقهاء يتناولون مفهوم الزينة وما الذي يظهر منها ولمن يظهر في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ [النور: ٣١]،

---

(١) انظر: المصدر نفسه (ص: ٤٩٠-٤٩١).

(٢) المصدر نفسه (ص: ٥٥٠ - ٥٥١).

إلا أنها في حدود معروفة، لا تدعو إلىٰ التحلل والإباحية!!

أما تناولها بقصد انكشاف المرأة بإظهار كل جسدها عارية، فهذا لا يقول به ذو فطرة سوية، ومن عرف رأي شحرور في هذه المسألة بناء علىٰ الحد الأدنىٰ والأعلىٰ في لباس المرأة لا يسعه إلا أن يمج قوله بمجرد سماعه: فهو يرىٰ أن أقل مطلوب من المرأة في اللباس ويرضي الله ﷻ إذا فعلته أن تستر العورتين المغلظتين فقط! وتظهر أمام عامة الناس!! وأما المحارم والأطباء وعمال الأشعة فلها أن تظهر أمامهم عارية بالكلية!![1].

الحدود فيما يتعلق بعلاقة الرجل بالمرأة:

ليس مستغربًا فيمن خلع المرأة من جلبابها وبنطالها أن يقوم بعد ذلك بتحديد علاقة الرجل بها، فيا ترىٰ هل يتصوَّر من شخص يأمر المرأة بالتعري أن يشدد عليها في تكوين العلاقة بالرجل؟! هل يتخيل من شخص يأمر المرأة بالسفور أن يأمرها بالحشمة والعفاف في آن؟! لذا جعل شحرور هذه المسألة تتبع الأعراف التابعة لكل بلد، أو ما يسمىٰ بالآداب العامة في كل بلد، وهي تختلف من بلد لآخر، ومن زمان لآخر؛ ثم ضرب لنا مثلًا من المدن التي يراها محلًّا لتطبيق قواعده، يقول: "ونضرب مثالًا علىٰ ذلك: في منصب رئيس الدولة في الولايات المتحدة أو فرنسا أو روسيا، في هذه الدول الأعراف تسمح

(١) انظر: المصدر نفسه (ص: ٦٢٩).

بعلاقة بين الرجل والمرأة قد تصل إلىٰ حد الزنا المخفي لا العلني، ولا يوجد ما يمنع هذه العلاقة عرفًا ولا تشريعًا"[١].

ثم فصَّل الحكم أكثر حين قال: "خطأ المناداة بتطبيق أحكام الشريعة الإسلامية؛ لأن الشريعة الإسلامية لا تحتوي علىٰ أحكام، بل علىٰ حدود، ولا يوجد حكم حدي في الإسلام إلا في حالة الفاحشة العلنية"[٢].

وإن المتأمل لا يحتاج في المسائل الثلاث المذكورة إلىٰ كبير عناء ليرد علىٰ اعتداءاته علىٰ الشرع؛ بحجة الحد الأعلىٰ والحد الأدنىٰ في الطاعة المتصلة -حسب تقسيمه-، يكفي أن نعرض هذه النتائج القذرة ليعلم الناس مآلات هذه الأقوال، وما أهداف أصحابها.

والخلاصة: أن سنة الرسالة المتصلة ليست ثابتة، بل متحركة من أدنىٰ لأعلىٰ؛ لذا لا يستدل بها علىٰ إطلاق.

ب- الطاعة المنفصلة: يقصد أن يأتي الأمر في القرآن بطاعة النبي منفصلًا عن طاعة الله؛ كما في قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيْرٞ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩]، وفي قوله:

---

(١) المصدر نفسه (ص: ٥٥٠-٥٥١).

(٢) المصدر نفسه (ص: ٤٧٢).

﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [التغابن: ١٢].

والمعنى: أطيعوا الرسول في حياته، أما بعد مماته فلا؛ لأنها لم تأت متصلة بأوامر الله الحي الباقي.

وقد بين شحرور الفرق بين الطاعتين كما نقلنا سابقًا، حين قال: "وبما أن الله حي باق وقد دمج طاعة الرسول مع طاعة الله في طاعة واحدة، ففي هذه الحالات تصبح طاعة الرسول مع طاعة الله في حياته وبعد مماته"(١).

ومفهومه: أنه في الطاعة المنفصلة لم يدمج الله طاعة رسوله مع طاعته، فتكون النتيجة: أن هذه الطاعة غير ملزِمة الآن؛ لأنها جاءت بعد وفاة الرسول ﷺ. وفي هذا يقول شحرور: "هذه الطاعة جاءت طاعة للرسول في حياته لا بعد مماته، أي: في الأمور اليومية والأحكام المرحلية، وفي الأمور والقرارات التي مارسها كرئيس دولة وكقاض وكقائد عسكري، وفي أمور الأحكام المعاشية والطعام والشراب واللباس حيث اتبع الأعراف العربية، وكان يتحرك ضمن حدود الله دون أن يخرج عنها"(٢).

---

(١) المصدر نفسه (ص: ٥٥٠-٥٥١).
(٢) المصدر نفسه (ص: ٥٥٢).

الرد على هذا التقسيم:

لو تأمل المتأمل في هذا التقسيم، وكم من السُّنة ستُهمل إذا ما طبقه المرء في حياته، لَعَلِمَ أنه قد عطَّل السُّنة والعمل بها، واستجاب لداعي الهوىٰ والشيطان.

وبعيدًا عن الحكمة البلاغية في الخطاب بـ ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ﴾ وبـ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾، أو الفصل بين أوامر الله وأوامر رسوله بكلمة الطاعة، ولو سلَّمنا بصحة المعنىٰ اللغوي في الفرق بين الرسول والنبي من حيث الأصل، بعيدًا عن ذلك كله، نقول: لقد أخذ الصحابة هذا الدين كاملًا، وعملوا به، وفهموا معنىٰ النبوة والرسالة والطاعة والمعصية علىٰ أتم وجه، وعلموا أن الخير كله في اتباع سنته ﷺ، والشر كله في مخالفتها، ولم يدُر في خلدهم أن هناك شخصيتين أو حقيقتين (نبوة ورسالة) تتمثلان فيه ﷺ!

وقد جاءت الآيات القرآنية صريحة في الحثِّ علىٰ اتباعه ﷺ، منها ما جمعت بين لفظ الرسالة والنبوة؛ كما في قوله تعالىٰ: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَـٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٧]. فلم تفرق هذه الآية الكريمة في الاتباع والعمل بسنته ﷺ بين كونه نبيًّا أو رسولًا.

وكذا نجد الأمر بالاتباع يرد في بعض الآيات التي لم تذكر النبوة ولا الرسالة، قال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١]. فمن هذا الذي أُمرنا باتباعه سوىٰ نبي الله ورسوله محمد ﷺ؟!

وأما ما يتعلق بالعمل بسنته في حياته لا بعد مماته؛ فكأن لسان حال القائل به يقول: ننفي عنه العصمة! وإلا لو آمن أنه ﷺ كان معصومًا وأنه يوحىٰ إليه؛ لَلَزِمَ أن يقول ذلك في كل الوحي حتىٰ لو كان قرآنًا، فلِمَ نفىٰ أن تكون تلك السُّنة تصلح للأمة لا تلك، وبعض الوحي يصلح لا كله؟! وقد سوّىٰ الله ﷻ بين السُّنة والقرآن في كونهما وحيًا، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣، ٤]، وعنِ المِقدامِ بنِ معدي كرِبَ رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: **«ألا إنِّي أوتيتُ الكتابَ ومثلهُ معهُ، ألا يُوشكُ رجلٌ شبعانَ علىٰ أريكته يقولُ: عليكُم بهذا القرآنِ، فما وجدتُّم فيه من حلالٍ فأحلُّوهُ، ما وجدتُّم فيه من حرامٍ فحرِّمُوهُ»**[1]، وعن أبي رافع، عن النبي ﷺ قال: **«لا ألفين أحدكم**

---

(١) أخرجه مطولا ومختصرا أبو داود (٤٦٠٤)، وابن زنجويه في الأموال (٦٢٠)، والطبراني في الكبير (٢٠/ ٦٦٨، ٦٧٠)، وفي الشاميين (١٠٦١)، والبيهقي في دلائل النبوة (٦/ ٥٤٩)، والخطيب في الفقيه والمتفقه (١/ ٨٩)، وابن عبد البر في التمهيد (١/ ١٤٩-١٥٠)، من طرق عن حريز بن عثمان، عن عبد الرحمن بن أبي عوف الجرشي، عن المقدام بن معدي كرب الكندي به. وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٢٢٩).

متكئًا علىٰ أريكته، يأتيه الأمر من أمري مما أمرت به أو نهيت عنه، فيقول: لا ندري! ما وجدنا في كتاب الله اتبعناه»(١).

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصىٰ الله»(٢)، وفي صحيح البخاري عنه رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبىٰ»، قيل: يا رسول الله، ومن يأبىٰ؟! قال: «من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبىٰ»(٣).

ولم يحدد ﷺ في هذه النصوص نوع الطاعة، ولم يفرق بين مقام النبوة والرسالة -كما يزعم شحرور- بهذا المعنىٰ المبتدَع، بل حذر كل الحذر من التفريق بين الكتاب والسنة، خاصة من يقول بالعمل بالقرآن وحده دون السنة.

"فكما وجب علىٰ الصحابة بأمر الله في القرآن اتباع الرسول وطاعته في حياته، وجب عليهم وعلىٰ من بعدهم من المسلمين اتباع سنته بعد وفاته؛ لأن النصوص التي أوجبت طاعته عامة لم تقيد ذلك بزمن حياته، ولا بصحابته دون غيرهم، ولأن العلة جامعة بينهم وبين من بعدهم، وهي أنهم أتباعٌ لرسولٍ أمر الله باتباعه وطاعته؛ ولأن العلة

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٠٥)، والترمذي (٢٦٦٣)، والحاكم (٣٦٨)، وصححه الألباني في المشكاة (٢٣).

(٢) أخرجه البخاري (٧١٣٧)، ومسلم (١٨٣٥).

(٣) أخرجه البخاري (٧٢٨٠).

أيضًا جامعة بين حياته ووفاته؛ إذ كان قوله وحكمه وفعله ناشئًا عن مُشَرِعٍ معصوم أمر الله بامتثال أمره، فلا يختلف الحال بين أن يكون حيًّا أو بعد وفاته"(١).

وإذا كان الوحي قاصرًا مدته على تلك الفترة أو الحقبة التاريخية، فما معنى قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]؟!

قال ابن كثير: "هذه أكبر نِعَم الله تعالى على هذه الأمَّة؛ حيث أكمل تعالى لهم دينَهم، فلا يحتاجون إلى دينٍ غيره، ولا إلى نبيٍّ غير نبيِّهم -صلَوات الله وسلامُه عليه-؛ ولهذا جعله الله تعالى خاتمَ الأنبياء، وبعَثَه إلى الإنسِ والجنِّ، فلا حلالَ إلَّا ما أحلَّه، ولا حرام إلَّا ما حرَّمه، ولا دين إلَّا ما شرعَه، وكلّ شيء أخبرَ به فهو حقّ وصدق لا كذب فيه ولا خُلف"(٢).

وقد تواترت الأحاديث عن رسول الله ﷺ بأنه كان يوصي أصحابه في خطبته أن يبلغ شاهدهم غائبهم، ويقول لهم: «رب مبلغ أوعى من سامع»(٣)، ومن ذلك أنه ﷺ لما خطب الناس في حجة الوداع في يوم عرفة وفي يوم النحر قال لهم: «فليبلغ الشاهد الغائب؛ فإنه

---

(١) السنة ومكانتها في التشريع (ص: ٧٢).

(٢) تفسير ابن كثير (٥/ ٢٤٦).

(٣) أخرجه البخاري (١٧٤١) عن أبي بكرة رضي الله عنه.

رب مبلغ يبلغه لمن هو أوعىٰ له»[١]، فلولا أن سنته حجة علىٰ من سمعها وعلىٰ من بلغته، ولولا أنها باقية إلىٰ يوم القيامة، لم يأمرهم بتبليغها، فعلم بذلك أن الحجة بالسنة قائمة علىٰ من سمعها من فيه ﷺ، وعلىٰ من نقلت إليه بالأسانيد الصحيحة[٢].

وقد حفظ أصحاب رسول الله ﷺ سنته ﷺ القولية والفعلية، وبلغوها من بعدهم من التابعين، ثم بلغها التابعون من بعدهم، وهكذا نقلها العلماء الثقات جيلًا بعد جيل، وقرنًا بعد قرن.

وقد تبيّن من خلال كتب السنن والمصنفات التي نقلت لنا صور اتباع الصحابة لرسول الله ﷺ مدىٰ صدق حبهم له، فقد ضربوا أروع الأمثلة في ذلك، فالاقتداء به تجاوز قضية التشريع في الحلال والحرام، بل إنهم من شدة حبهم له يقتدون به حتىٰ في الأفعال الجبلية؛ فهذا أنس رضي الله عنه يقول: "رأيت النبي يتتبع الدباء من حوالي القصعة"، قال: "فلم أزل أحب الدباء من يومئذ"[٣].

ولنتأمل ما أورده الإمام البخاري في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة: باب الاقتداء بأفعال النبي ﷺ، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: "اتخذ النبي ﷺ خاتمًا من ذهب، فاتخذ الناس خواتيم من ذهب،

(١) أخرجه البخاري (٧٠٧٨) عن أبي بكرة رضي الله عنه.

(٢) انظر: مجموع فتاوىٰ ابن باز (١/ ٢٤١).

(٣) أخرجه البخاري (٢٠٩٢)، ومسلم (٢٠٤١).

فقال النبي ﷺ: «إني اتخذت خاتمًا من ذهب» فنبذه، وقال: «إني لن ألبسه أبدًا»، فنبذ الناس خواتيمهم"(١).

فهذا حديث عظيم الشأن؛ إذ استدلَّ به الإمام البخاري في الاقتداء بأفعال النبي ﷺ، كما في التبويب، بل جعله في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة.

والصور والمواقف التي تُجلِّي صور الاقتداء أكثر من أن تذكر في هذه الورقة، وهي لا شك تدلّ دلالة واضحة على أن الاقتداء بسنته ﷺ دِينٌ وهداية ونور، قال تعالى: ﴿وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨](٢)

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين(٣).



(١) أخرجه البخاري (٧٢٩٨).

(٢) للاستزادة في هذا الموضوع ورد هذا التقسيم المنكر ينظر: "الاتجاه العلماني المعاصر في دراسة السنة النبوية"، غازي الشمري (٥٤-١٠٨). وقد تبع شحرور في هذا التقسيم المهندس زكريا أوزون كما في كتابه: "جناية البخاري"، ورد عليه مروان الكردي في كتابه: "الجناية على البخاري".

(٣) إعداد: فوزي بن عبد الصمد فطاني.

لا يخفى على دارسٍ للواقع العلمي للصراع الفكري بين الحضارة الغربية والحضارة الإسلامية أن المعني الأول بصياغة الأفكار حول الإسلام للغرب سلبا أو إيجابا هي الحركة الاستشراقية، فقد أوقف المستشرقون حياتهم العلمية وإنجازاتهم الثقافية لدراسة الدين الإسلامي وقيمه ومبادئه، ولا شك أن محاولة نقد الإسلام من داخله أو ما يسمى بـ «عملية التفجير من الداخل» قد أسهمت في تشويش كثير من الأفكار وإثارة الشبهات حول الإسلام والرسول ﷺ، ولم يقتصر هذا التشويش على المخالفين للإسلام، بل أثر على كثير من المثقفين وقادة الفكر في العالم الإسلامي، وأربكهم في كثير من القضايا، وزعزع قناعتهم في المسلَّمات، وسوف نقوم بإلمامة سريعة ببعض المناهج الاستشراقية؛ لنقدم الوسائل العلمية لمواجهتها، فمن أهم مناهجهم التي اعتمدوا في نقد الإسلام من الداخل المناهج الآتية:

إصدار نتائج غير صحيحة على وقائع صحيحة:

هو منهج خطير، من لم يتنبه له فإنه يقع أسيرا للشِّباك التي يرميها القوم في بحور الشريعة، فمن ذلك أن الواحد منهم يقدّم نتيجة لم يكلف نفسه بفحص مقدماتها، ألا ترى "ول ديورانت" يقول في كتابه الموسوعي "قصة الحضارة" عن النبي ﷺ: "وقد أعانه نشاطه

وصحته على أداء واجبات الحب والحرب، لكنه أخذ يضعف حين بلغ التاسعة والخمسين من عمره، وظن أن يهود خيبر قد دسّوا له السُّم في اللحم قبل عام من ذلك الوقت"[1].

فهو يريد من خلال هذا التحليل أن ينكر واقعة دس السم للنبي ﷺ، وبطبيعة الحال سوف يصل إلى نتيجتين:

الأولى: تبرئة اليهود من هذا الجرم.

والثانية: نفي معجزة من معجزات النبي ﷺ وهي تحديث الكتف له عليه السلام بوضع السم فيها، وقس على ذلك.

تبنيهم دعوى الاستفادة:

فهم لا ينطلقون من أن القرآن نزل من عند الله، وأن محمدا رسول الله؛ وإنما يجعلون من نصوص القرآن والسنة نصوصا مؤلفة من شخص واحد، أو من أشخاص متعددين، وأثناء التأليف قاموا بالاستفادة من مجموعة من المعارف المختلفة الموجودة في زمنهم كالكتب السماوية والحضارات الموجودة، ويقومون بالاستدلال على ذلك بأي تشابه أو تواطؤ وجدوه يشهد لهذه الفكرة، وهذا ما دندن حوله المستشرق الألماني "تيودور نولدكه" في كتابه "تاريخ القرآن"[2]، وفي جانب القانون جعلوا الإسلام مجرد نسخة من القانون الروماني، وما الإسلام إلا لون من ألوان الجمع بين الإسلام

---

(١) قصة الحضارة (٤/ ٤٦).

(٢) تاريخ القرآن (١/ ٢٠) وما بعدها.

والمسيحية، وهو مجرد قراءة توفيقية، إلىٰ غير ذلك من الدعاوىٰ التي يصدرها هؤلاء المناوئون للإسلام.

ومعضلة المستشرق أيا كان أنه يتعامل مع الأديان علىٰ أنها منفصلة عن بعضها لا يجمع بينها رابط، فلما جاء دور المقارنة سمح لمخيلته أن تنسج إجابات عن تساؤلات بنيت علىٰ رؤية سطحية مسبقة: من تأثر بمن؟ وما أدلة التأثير؟ وهكذا بدل أن تكون حالات التشابه بين الأديان عاملًا يوحّدها ويرجعها إلىٰ منبعها الأصلي، ومن ثم يؤكد غايتها المتجسدة في هداية البشر، فقد تحولت بيد المستشرق إلىٰ أداة سطوٍ فكري؛ يتم بواسطتها إفراغ الإسلام من مضمونه، وذلك بإرجاعه إلىٰ مصادر خارجية كالنصرانية واليهودية والمجوسية والبوذية والبابلية[1].

العلمانية والمادية:

وهو منهج يتم استبعاد البعد الديني من خلاله لأي تصرف يقوم به النبي ﷺ وأصحابه، ويتمّ تفسير تصرفاتهم تفسيرًا ماديًّا نفعيًّا، فتفسر الفتوحات علىٰ أنها مطامع توسعية دعا إليها الجفاف، فندرة المياه في الجزيرة العربية كانت عاملًا أساسيًّا في كثرة الفتوحات إلىٰ هذا الحد[2]. ويتم توزيع هذه التهمة علىٰ سائر الإنجازات الحضارية

---

(١) مناهج المستشرقين (ص: ١٠)، وانظر: الاستشراق في السيرة النبوية، لعبد الله النعيم (ص: ٣٤).

(٢) ينظر: محمد في مكة، للمستشرق الإنجليزي ويليام مونتجمري وات (ص: ٥٦).

للأمة، وفق زبد من مضحكات التأويل ومستكرهات المنطق، ومن ثم فإن التوسع لا يمكن أن يفهم إلا في إطار عوامل اقتصادية بحته لا علاقة لها بنشر القيم أو الدوافع الدينية.

وخطر هذه النظرة أن أصحابها يستندون إلىٰ أحداث ووقائع يفسرونها تفسيرًا خاصًّا بهم، فلزم علىٰ المدافعين عن الهوية الإسلامية أن يكونوا علىٰ قدر من التيقظ والوعي، يخولهم لمواجهة هذا الفكر، وذلك لا يكون إلا باستخدام آليات علمية جادة تضع حدًّا لهذه الثغرات، وتبدي الإسلام في صورته الحقيقية؛ بعيدا عن التصورات الوهمية التي قدمها هؤلاء، وذلك بتبني وسائل متعددة غير تقليدية يمكن معها المناجزة علىٰ أكثر من صعيد، ومن هذه الوسائل:

- إعداد موسوعات للرد علىٰ المستشرقين.
- إعداد دائرة معارف إسلامية جديدة.
- فتح معاهد للدراسات الاستشراقية في الجامعات الإسلامية، تعنىٰ بما يصدر عن المستشرقين تصنيفًا ودراسةً ونقدًا.
- تدريس الاستشراق وآثاره ومناهجه في الأقسام العلمية في الجامعات الإسلامية[1].

---

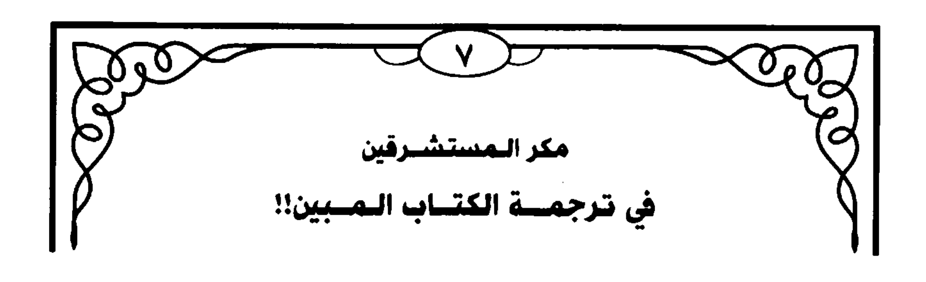
(١) ينظر: دراسات في تميز الأمة الإسلامية وموقف المستشرقين منه، لإسحاق بن عبدالله السعدي (٢/ ١٢٢٤) وما بعدها.

هذا وينبغي استحضار أن الاستشراق وجه من وجوه الاستعمار؛ فلذلك هو قوي بقوته، فكلما ضعفت الأمة ماديًّا انعكس هذا الضعف علىٰ العطاء العلمي والثقافي؛ فلذلك ينبغي إدراك ذلك أثناء المواجهة العلمية للاستشراق، وهو أن من عوامل استقوائه علىٰ الأمة ضعفها وشعور أبنائها بالضعف، فينبغي إنشاء وعي ثقافي بتاريخ الأمة ومقوماتها ونقاط قوتها في الماضي والحاضر، وتعزيز الثقة بالثقافة الإسلامية وتقويتها في نفوس الشباب والمبتعثين للخارج، مع استغلال الموارد الاقتصادية للأمة في نشر دينها والتعريف بنبيها ﷺ وبرسالته، كما ينبغي التركيز علىٰ جوانب الخلل العلمي في البحث الاستشراقي، وتبيين عدم نزاهة الآليات العلمية عندهم، وينبني علىٰ ذلك بطبيعة الحال عدم صحة النتائج التي بنوها علىٰ مقدماتهم الباطلة، والتي استحضروا فيها العداء والخصومة الثقافية أكثر من استحضارهم لأخلاق العلم، وهو أمر لن يجد الباحث فيه كبير عناء، هذا بالإضافة إلىٰ توفير مادة علمية مبسطة لغير المختصين، خصوصًا من المبتعثين وأصحاب التخصصات في العلوم الإنسانية؛ لأنهم عرضة للأفكار الاستشراقية؛ لاحتكاكهم بالعلوم الغربية وضعف تصور كثير منهم للعلوم الشرعية؛ وذلك أن الدراسات الاستشراقية ركزت جهودها علىٰ تاريخ الأمة القديم، ولا سيما الفتن والحروب الأهلية والفرق الدينية الهامشية وكل مسألة تظهر سلبيات هذا التاريخ، كما عمدوا إلىٰ

تعظيم دور الفرق الدينية بقصد النيل من وحدة الإسلام، ووحدة مجتمعه وحضارته، وجعلوا من الفرق الدينية صانعًا لعقيدة المسلمين علىٰ مرِّ التاريخ، فلزم أن يؤرَّخ لهذه الفرق، والمدافعة التي حصلت بينها وبين أهل السنة في سبيل حماية العقيدة الإسلامية من كل دخيل عليها حتىٰ بقيت ناصعة واضحة لمن أرادها، وعليه فإن أخذ هذا المعنىٰ بالحسبان وتوفير هذه المادة ومحاولة تقريبها من الجميع يعد من أعظم أبواب نصرة الدين[١].



(١) إعداد: الحضرمي أحمد الطلبة.



مكر المستشرقين
في ترجمة الكتاب المبين!!

جاء الدين الإسلامي ليغير فكر الدنيا كلها، فهو دين عالمي أرسل للناس كلهم، ومن هذا المنطلق اتفق العلماء قديمًا على جواز ترجمة معاني القرآن الكريم؛ تحقيقًا لعالمية الإسلامية وشمول رسالته للناس كافة.

وفي هذا يقول الشيخ عبد الله الأنصاري الهروي (ت ٤٣٤ هـ) -في معرض تفسيره لقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ [إبراهيم: ٤]-: "في الآية دليل على أن القرآن نزل بلغة العرب؛ لأن الرسول كان عربيًا وكان أهل الخطاب يومئذٍ عربًا، لم يبلغ الخطاب العجم بعد، فوجب إذ بلَّغهم أن يبيِّن لهم بلسانهم المعنى الذي نزل الخطاب عربيًا بعينه؛ ليبين للعجم كما يبين للعرب"(١).

وقد حكى الاتفاق على جواز ترجمة معاني القرآن الكريم غير واحد من أهل العلم؛ إذ يقول شيخ الإسلام ابن تيميَّة (ت ٧٢٨ هـ): "يجوز ترجمة القرآن في غير الصلاة والتعبير؛ كما يجوز تفسيره، باتفاق المسلمين"(٢).

---

(١) ينظر: تفسير كشف الأسرار وعدة الأبرار، لرشيد الدين الميبدي (٥/ ٢٢٦).

(٢) ينظر: الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح لابن تيمية (٢ / ٦٧).

ويعلق الدكتور محمد حسين الذهبي (ت ١٣٩٨ هـ) علىٰ كلام شيخ الإسلام؛ بقوله: "وعلىٰ هذا؛ فإن ترجمة هذا التفسير داخلة تحت هذا الاتفاق؛ لأن عبارة الترجمة التفسيرية محاذية لعبارة التفسير لا لعبارة الأصل القرآني، فإذا كان التفسير مشتملًا علىٰ معنىٰ الأصل، وشرحُهُ مما يسهِّل فهم القرآن وتدبُّرَهُ، كانت الترجمة لهذا التفسير، أو المعنىٰ مشتملة -أيضًا- علىٰ هذا كله؛ لأنها ترجمة للتفسير لا للقرآن، ولا شك أن كلًّا من التفسير وترجمته بيان جانب أو أكثر من جانب من جوانب القرآن الكريم، ولا يحيط بها إلا من أنزله بلسان عربي مبين ﷺ وليس في واحد منهما إبدال لفظ مكان لفظ القرآن، ولا إحلال نظم مَحَلَّ نظمه، بل لفظ القرآن ونظمه باقيان علىٰ حالهما صورةً ومعنىً مِن غير خَللٍ ولا نقصانٍ"[1].

وبالرغم من هذا الاتفاق المقرر -سلفًا- فقد شهد القرن الماضي سجالًا علميًّا كبيرًا حول الحكم الشرعي لترجمة معاني القرآن الكريم إلىٰ اللغات الأجنبية، وتعددت الآراء والاتجاهات بين العلماء والمفكرين، وهي في جملتها لا تخرج عن ثلاثة أقوال: محرِّم لترجمة معاني القرآن الكريم بإطلاق، ومجوِّز له بإطلاق، ومتوسط بينهما بضوابط[2].

(١) ينظر: التفسير والمفسرون للذهبي (١/ ٢٨-٢٧).

(٢) ينظر: تفصيل ذلك في الباب الأول من بحث "ترجمة معاني القرآن الكريم تأصيل وتقويم وتخطيط (مدعمًا بالخرائط والإحصاءات والرسوم البيانية)" -تحت الطبع- وقد شاركت في إعداده ومراجعته.

وبعد مداولات ومناقشات وردود وأجوبة استقر عمل الأمة على جواز ترجمة معاني القرآن الكريم بضوابطه، وهو ما ذهب إليه كبار علماء الأزهر، وهيئة كبار العلماء بالمملكة العربية السعودية؛ وصرَّح بعضهم بأنها تأخذ حكم الوجوب؛ استنادًا لقاعدة: "ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب"[١].

كما جاء في بحث هيئة كبار العلماء بالمملكة العربية السعودية: "والحكم عندنا في هذه القضية: إن ترجمة معاني القرآن الكريم إلى اللغات الأجنبية أمرٌ جائز بالأدلة الشرعية، بل إن الدعوة الإسلامية تقتضيه وتوجبه، فهو رأي ليس فيه ابتداع، بل إنه واجب الاتِّباع"[٢].

تراجم معاني القرآن في العالم الغربي:

للقرآن الكريم قوة ذاتية مؤثرة في النفس والوجدان، تبهر العقول وتأسر القلوب، مما كان له بالغ الأثر على نفوس وعقول الأوربيين، فأبهرهم ببلاغته وأسلوبه البديع مما جعلهم يدخلون في الإسلام أفواجًا؛ وقد اعترف فلاسفتهم بهذا الأثر والتأثير للقرآن الكريم؛ حيث يقول الفيلسوف السويسري فريتجوف شيون: "الطابع الخارق لهذا الكتاب [يعني: القرآن الكريم] ليس فقط في محتواه العقدي، وحقيقته

---

(١) ينظر: فتاوى اللجنة الدائمة للإفتاء، المجموعة الأولى (٤/ ١٦٢)، وما بعدها، الفتاوى ذي الأرقام الآتية: (٨٣٣، ١٦٠١، ٢٧٢٩).

(٢) ينظر: ترجمة معاني القرآن بين التأييد والتحريم، الحكم في قضية ترجمة معاني القرآن، مجلة بحوث هيئة كبار العلماء، العدد الثاني عشر، سنة ١٤٠٥هـ.

النفسانية والنسكية، وسحره الذي يُحوِّلُ ويُبدِّلُ، وإنما يظهر كذلك في فعاليته الخارجية وفي معجزة انتشاره"[١].

وقد أزعج انتشارُ الإسلام في الغرب السياسيين ورجال دينهم -القساوسة والرهبان- وأضج مضاجعهم، فلجؤوا إلىٰ محاولة صد الناس عن الدخول في الإسلام، واتخذوا ترجمة القرآن الكريم وتحريف معانيه وسيلة لتشويهه من داخله، والطعن فيه وفي رسوله سيدنا محمد صلىٰ الله عليه وسلم، وانطلقت أول المحاولات لترجمة معاني القرآن الكريم مِن دير كلوني في جنوب فرنسا؛ بوصفها رمزًا للتوبة والتكفير عن الغضب الإلهي الذي تمثَّل في انتشار الإسلام وتوسُّعِه في أوروبا[٢].

ومع اشتدادهم في هذا الأمر، وبذلهم لغاية الوسع والطاقة في سبيل تحقيقه، فإن الله تعالىٰ لا يخلف وعده بإبطال مكرهم وإفساد كيدهم؛ حيث يقول تعالىٰ ذكره: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠]، ويقول ﷻ: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا﴾ [الطارق: ١٥ - ١٧] .

---

(١) ينظر: كيف نفهم الإسلام؟ لفرتيجوف شيون (ص: ٥٤).

(٢) ينظر: الترجمات القرآنية بين نقل المعاني وهدم المباني. ترجمة تولن ترنر لمعاني القرآن للإنجليزية. للباحث جاسم حسين، مجلة النور - العدد (٨٩) جمادىٰ الآخرة ١٤١٩هـ - أكتوبر ١٩٩٨م (ص: ٦١).

اتجاه الغرب النصراني للاستشراق:

الاستشراق بمعناه العام: هو اتجاه فكري يُعنىٰ بدراسة حضارة الأمم الشرقية بصفة عامة، وحضارة الإسلام والعرب بصفة خاصة، وقد كان مقتصرًا في بداية ظهوره علىٰ دراسة الإسلام واللغة العربية، ثم اتسع ليشمل دراسة الشرق كله، بلغاته وتقاليده وآدابه(١).

وقد تنوعت الآراء حول نشأة الاستشراق، وبداية دراسة الغرب للعلوم المشرقية، ويرىٰ بعض الباحثين أن احتكاك النصارىٰ بالمسلمين في بلاد الأندلس يُعد الانطلاقة الحقيقية للاستشراق(٢)، وهو رأي وجيه له حظ كبير من النظر، خاصة إذا أخذنا بعين الاعتبار الازدياد الكبير في النشاط الاستشراقي في تلك الفترة.

وقد اتجه الغرب إلىٰ الاستشراق ودراساته حول القرآن الكريم؛ واستخدامه كوسيلة لتحقيق مآربه في محاربة الإسلام والطعن فيه وإيقاف تأثيره؛ ومن أقوىٰ الأدلة علىٰ هذا ما أعلنه جلادستون -رئيس الوزراء البريطاني-(ت ١٨٩٨ م) أمام مجلس اللوردات البريطاني، حيث أمسك المصحف بيده، وقال: "ما دام هذا الكتاب علىٰ الأرض،

---

(١) ينظر: مقدمة حول الاستشراق والمستشرقين، وهذا رابطها:
http://articles.islamweb.net/media/index.php?page=article&lang=A&id=21321%20%D8%8C
والموسوعة العربية العالمية (١/ ٦٧٥)

(٢) ممن ذهب إلىٰ هذا القول الدكتور مصطفىٰ السباعي؛ ينظر: الاستشراق والمستشرقون -نظرة تحليلية د. عبد العزيز بن سعد الدغيثر، علىٰ موقع صيد الفوائد، وهذا رابطه: http://www.saaid.net/Doat/aldgithr/29.htm

فلا سبيل لنا إلىٰ إخضاع المسلمين"؛ لذا قاموا باستثمار ترجمات معاني القرآن الكريم باللغات المختلفة لشنِّ المزيد من الغارات والهجمات الشَّرسةِ علىٰ الإسلام، وتشويه القرآن، وإثارة الشُّبهات حوله باسم المناهج العلمية، والأمانة الأخلاقية، والنظريات المذهبية والعقدية[١].

ولا ينبغي علىٰ المسلمين أبدًا أن ينخدعوا بما قد يظهره بعض المستشرقين من تعاطف بالغ مع قضايا الإسلام: كاستشهادهم بنصوص قرآنية مسندين إياها إلىٰ الله تعالىٰ؛ فالأمر لا يعدو أن يكون مظهرًا جماليًّا وحضاريًّا يسعىٰ من ورائه المستشرق إلىٰ التقرب إلىٰ المسلمين، وكسب مودتهم[٢].

وإنعامًا في إظهار سوء طويتهم وتعريفًا للمسلمين بمكرهم وخداعهم؛ فإني أسوق فيما يلي دراسة -تناسب المقام- لأشهر ترجمات المستشرقين لمعاني القرآن الكريم، مع تقويمها علميًّا، مقسمًا إياها إلىٰ مرحلتين رئيسيين؛ تبعًا لتغير أساليبهم[٣]:

---

(١) ينظر: تاريخ حركة ترجمة معاني القرآن الكريم من قبل المستشرقين ودوافعها وخطرها. د. محمد بن حمادي الفقير التمسماني، ضمن أبحاث ندوة ترجمة معاني القرآن الكريم المنعقدة بالمدينة ١٤٢٣هـ (٥/ ٢٤٢٤).

(٢) ينظر: الدراسات القرآنية في مناهج البحث الاستشراقي المعاصر د. حسن عزوزي، مجلة الوعي الإسلامي العدد (٤١١) (ص: ٢٣).

(٣) ينظر: ترجمة معاني القرآن الكريم والمستشرقون (لمحات تاريخية وتحليلية)، لأحمد مهر علي، ضمن أبحاث ندوة ترجمة معاني القرآن الكريم المنعقدة =

أولًا: مرحلة العداء السافر للإسلام:

في هذه المرحلة كان الهدف الرئيس المعلن من ترجمة معاني القرآن الكريم هو الحرب الصريحة ضد الإسلام وتشويهه والطعن فيه، وقد ظهرت في هذه الحقبة عدة ترجمات لمعاني القرآن الكريم باللغات اللاتينية والفرنسية والإنجليزية:

أولى الترجمات اللاتينية: ترجمة روبرت (١١٤٣ م):

تعتبر تلك الترجمة هي أولىٰ ترجمات معاني القرآن الكريم في أوروبا، وقد ظهرت في منتصف القرن الثاني عشر الميلادي، وبالتحديد في عام (١١٤٣ م)، وكان ظهورها بعد الحملة الصليبية الثانية بأربع سنوات، وكانت بطلب من القديس بطرس الملقب بالموقر (ت ١١٧٥ م)، وهو أسقف دير كلوني الموجود في جنوب فرنسا.

وقد اختار لهذه المهمة ثلاثة من المترجمين: الأول إنجليزي ويدعىٰ: (روبرت كيتيننسيس = Robert Ketenensis)، والثاني ألماني من دلماتيا ويسمىٰ: (هرمان Herman of Dalmatia)، والثالث إسباني، وقد أنجزت هذه الترجمة بالاستعانة باثنين من العرب.

وضعت هذه الترجمة تحت تصرف رجال الكنيسة؛ ليستعملوها في استكمال دراساتهم اللاهوتية، أو القيام بأعمال التنصير، غير أن

= في المدينة ١٤٢٣هـ (٦/ ٢٤٥٧)، ومقال بعنوان: «الترجمات اللاتينية الأولىٰ للقرآن الكريم وتأثيرها» للدكتور حسن المعايرجي، مجلة المسلم المعاصر، عدد (٤٨)، سنة ١٤٠٧هـ (ص ٣٠).

الدوائر الكنسية منعت من طبع هذه الترجمة وإخراجها إلىٰ الوجود؛ خشية أن يساعد خروجها علىٰ انتشار الإسلام، بدلًا من أن يخدم الهدف الذي سعت إليه الكنيسة أصلًا، وهو مناهضة الإسلام.

ولذلك ظلت هذه الترجمة مخطوطة تُتداول في الأديرة قرابة الأربعة قرون، إلىٰ أن قام (توماس ببلياندر = Thomas Bibliander) بطبعها في بال سنة (١٥٤٣م).

تقويم الترجمة من الناحية العلمية:

١) وصفت هذه الترجمة بأنها لا تستحق اسم ترجمة أصلًا؛ لكثرة ما فيها من أخطاء وحذف وإضافة، بل وتصرف في النص القرآني بحرية كبيرة مما يجعل من الصعب تمييز النص الأصلي.

٢) لا تشتمل هذه الترجمة علىٰ أي تشابه مع الأصل، ومع ذلك ظلت أصلًا يُعتمَدُ عليه لمدة طويلة، كما شَكَّلت النواةَ الأولىٰ لسائر الترجمات الأوروبية فيما بعد.

٣) تتابعت الترجمات الاستشراقية مستنِدَةً إلىٰ ترجمة (روبرت)، فصدرت أقدم ترجمة لمعاني القرآن الكريم إلىٰ اللغة الإيطالية سنة (٩٥٤هـ -١٥٤٧م)، ثم صدرت عن الترجمة الإيطالية ترجمةٌ ألمانية سنة (١٠٢٥هـ-١٦١٦م)، علىٰ يد (سالومون شفايجر)، وعن الألمانية صدرت ترجمة إلىٰ اللغة الهولندية سنة (١٠٥١هـ-١٦٤١م) ولا يعرف اسم مترجمها، وهكذا توالت الترجمات المعتمدة علىٰ ترجمة روبرت.

أولى الترجمات الفرنسية: ترجمة دي ريار (١٦٤٧م):

في منتصف القرن السابع عشر الميلادي -عام (١٦٤٧ م)- ظهرت أولىٰ الترجمات الفرنسية لمعاني القرآن الكريم، والذي قام بها المستشرق الفرنسي أندريه دي ريار، والذي كان يعمل قنصلًا لملك فرنسا في مصر.

تقويم الترجمة من الناحية العلمية:

١) ادَّعىٰ صاحب الترجمة أنه نقلها من النصِّ العربيِّ، ولكن أظهر النقادُ عدم صحة هذه الدعوىٰ، وأثبتوا خلافها وأن المترجم لم يكن له معرفة باللغة العربية أصلًا، ويظهر -جليًّا- للدارس لهذه الترجمة أنها نسخة فرنسية من الترجمة اللاتينية لترجمة (روبرت)[(١)].

٢) تركت هذه الترجمة أثرًا سيئًا؛ إذ كان هدف المترجم تشويهَ الإسلام وعقائده، وصرف الناس عن الدخول فيه، وكانت كلماته تنمُّ عن الازدراء لهذا الدين والافتراء عليه، ووصف القرآن بأنه من عند محمد ﷺ.

٣) رغم العيوب والأخطاء الكثيرة لهذه الترجمة إلا أنها تُرجمت إلىٰ مختلف اللغات الأوروبية تقريبًا: حيث قام (الكسندر روس) في

---

(١) ينظر: مقال «الترجمات اللاتينية الأولىٰ للقرآن الكريم وتأثيرها» للدكتور حسن المعايرجي (ص ٣٠).

عام (١٦٤٩م) بترجمتها إلىٰ اللغة الإنجليزية، وقام (غلازماخر) بترجمتها إلىٰ اللغة الهولندية في عام (١٦٥٨م)، وقام (يستنكوف، وفريفكين) بترجمتها إلىٰ اللغة الروسية، كما قام (لانج) بترجمتها إلىٰ اللغة الألمانية في عام (١٦٨٨م).

ترجمة القس (لودفيجو مراتشي) إلى اللاتينية (١٦٩٨ م):

في أخريات القرن السابع عشر الميلادي -عام (١٦٩٨ م)- ظهرت ترجمة لمعاني القرآن الكريم باللغة اللاتينية، قام بها القسيس لودفيجو مراتشي، وكان كاهنًا عند البابا إنوسنت الحادي عشر، وترقّىٰ في الدراسات اللاهوتية، ودرس اللاتينية، والعربية، والسُّريانية، واليونانية، والعِبرية، وقد صرح بأنه تفرَّغَ للعمل في هذه الترجمة لمدة أربعين سنة.

تقويم الترجمة من الناحية العلمية:

١) تعد هذه الترجمة أكثر مكرًا وهجومًا علىٰ الإسلام من الترجمات التي سبقتها، ويرجع السبب في هذا: إلىٰ معرفة صاحبها باللغة العربية معرفةً جيدةً، وتفرغه لها مستعينًا بمكتباتِ الكنائس -جميعًا- في ذلك الوقت، ومشاركته السابقة في ترجمة الإنجيل إلىٰ العربية، ويمكن القول: إن ترجمة (دي ريار) تافهةٌ بالنسبة لترجمة (مراتشي)[1].

---

(١) ينظر: المرجع السابق.

٢) لـمَّا كان الهدف من عمله دحض القرآن وتشويهه، فقد قام صاحبها بإدخـال كلمـات تحريفيـة وتأويليـة في مـتن ترجمتـه، ووضـع الحواشـي والتعليقـات التـي أخـذها مـن الروايـات الإسـرائيلية، والأحاديـث الموضـوعة؛ ليخـدم هدفـه، وحـاول بـذل جهـده في تصوير الإسلام بأنه خليط مفترًىٰ من اليهودية والنصرانية.

٣) بقدر خطورة ترجمة مراتشي يمكن قياس قيمة ومقدار الترجمات المستقاة منها، ومن أبرزها: ترجمة جورج سيل الآتية.

ترجمة جورج سيل إلى الإنجليزية (١٧٣٤م):

في منتصف القرن الثامن عشر الميلادي -عام (١٧٣٤ م)- ظهرت ترجمة جديدة باللغة الإنجليزية لمعاني القرآن الكريم، وصاحبها هو المستشرق الإنجليزي جورج سيل، والذي كان من الأعضاء الأوائل في جمعية تعزيز المعرفة بالمسيحية، وضمن المدققين في الجزء الثاني من العهد الجديد باللغة العربية، الصادر عن جمعية تعزيز المعرفة المسيحية في عام (١٧٢٦م)

تقويم الترجمة:

١) ادعىٰ صاحبها أن ترجمته من النص العربي مباشرة، وحقيقة الأمر أنه اعتمد في ترجمته علىٰ ترجمة مراتشي اللاتينية.

٢) تعد ترجمة (جورج سيل) لمعاني القرآن الكريم من أشهر أعماله، ولقلة بضاعته في العربية اتكأ علىٰ ترجمة (مراتشي) اللاتينية، وقد راجت رواجًا كبيرًا طوال القرن الثامن عشر، بل ظلت عمدةً

للباحثين الغربيين مدة قرنين من الزمن، كما ترجمت إلىٰ الهولندية والألمانية والفرنسية والروسية والسويدية والبلغارية.

٣) بالرغم مما تتضمنه تلك الترجمة من أخطاء ومغالطات وتحريفات إلا أنها طبعت أكثر من مائة وعشرين (١٢٠) طبعة.

٤) ومن جملة تحريفات جورج سِيل قوله: "إن محمدًا ﷺ كان في الحقيقة مؤلف القرآن والمخترع الرئيسي له". اهـ. وهو بهذا يروج - كأسلافه من المستشرقين - لفرية أن القرآن الكريم من تأليف النبي محمد ﷺ؛ ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف: ٥].

٥) يقول نجيب العقيقي - عن هذه الترجمة -: "وقد نجح[١] في ترجمته، فذكرها (فولتير) في القاموس الفلسفي، وأُعيد طبعها مرارًا، إلاَّ أنَّها اشتملت علىٰ شروح وحواش ومقدّمة مسهبة، هي في الحقيقة بمثابة مقالة إضافية عن الدين الإسلامي عامة حشاها بالإفك واللغو والتجريح"[٢].

بعد ذكر اعتماد جورج سيل علىٰ ترجمة مراتشي اللاتينية المليئة بالتحريفات والأكاذيب، وذكر نظرته للقرآن والنبي ﷺ، فهي ترجمة خائنة -علىٰ حدِّ تعبير المتخصصين في الترجمة-.

---

(١) يعني: من حيث شهرتها وكثرة طباعتها.

(٢) ينظر: المستشرقون، لنجيب العقيقي، ط. دار المعارف القاهرة -سنة (١٩٨١م) (ص٢٠٠).

ونظرًا لأن كثيرًا من المسلمين قد يخدعون بها؛ لتشدق بعضهم أنها ترجمة صدرت من عالم منصف، وقد ينصحون غير المسلمين بقراءتها، ولكونها واسعةَ الانتشار في الغرب علىٰ أنها ترجمة أمينة لمعاني القرآن؛ فلا بدَّ من عرض وجيز لأبرز ما فيها من سلبيات.

سلبيات ترجمة سيل:

١) اختار سيل كلمة واحدة فقط عنوانًا لترجمته لمعاني القرآن الكريم، وهي "القرآن"، والتي توهم بأن النسخة المترجمة هو القرآن بالإنجليزية تمامًا كما هو بالعربية.

٢) استخدم سيل أسلوب خداع القراء حيث دعا -دائمًا- إلىٰ الإنصاف، وأثنىٰ علىٰ القرآن الكريم، وترجم معانيه إلىٰ اللغة الإنجليزية، لكنه نفىٰ أن يكون وحيًا من عند الله، بل أكَّد علىٰ أنَّه مِن صنع النبي محمَّد بن عبد الله ﷺ، حيث يقول: "أمَّا أنَّ محمَّدًا كان في الحقيقة مؤلِّف القرآنِ المخترعَ الرئيسيَّ له فأمرٌ لا يقبل الجدلَ، وإنْ كان المرجَّح -مع ذلك- أنَّ المعاونة التي حصل عليها من غيره في خطَّته هذه لم تكُن معاونةً يسيرة، وهذا واضح في أنَّ مواطنيه لم يتركوا الاعتراض عليه بذلك".

٣) تحريفه المتعمد لمعاني القرآن الكريم، ومن أمثلته: تحريفه لعنصري الخطاب المباشر وغير المباشر، وتحريفه لكثير من الكلمات وتغييرها دون مبرر، وتحريفه للزمان والمكان، وتحريفه لترجمة الأفعال من العربية إلىٰ الإنجليزية، وتحريفه للحركات الإعرابية في القرآن الكريم؛ كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَجَعَلَ

كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلْعُلْيَا﴾ [التوبة: ٤٠]، فالحركة الإعرابية على ﴿كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ هي الفتحة، أما الحركة على ﴿كَلِمَةُ ٱللَّهِ﴾ الضمة، فترجمها سيل بهذه الترجمة الخائنة:

(And he made the word of those who believed not to be abased ،and the word of God was exalted; for God is mighty and wise)

فقام المترجم بترجمة ﴿كَلِمَةُ ٱللَّهِ﴾ على أن «كلمةَ» مفتوح آخرها، في حين أن الترجمة يجب أن تكون هكذا:

(And he made the word of those who believed not to be abased، but the word of God is always exalted; for God is mighty and wise)

والمقصود أن كلمة الكفار تصبح السفلى في حين أن كلمة الله كانت وما زالت، وستبقى هي العليا دائمًا.

١) إضافته لكلمة (مكة) في مواضع كثيرة ورد فيها الخطاب للناس جميعًا بصيغة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ [البقرة: ٢١]، وهو بهذا يطعن في عالمية الإسلام، وعموم رسالة النبي ﷺ، وأن الله تعالى أرسله إلى الناس كافة بشيرًا ونذيرًا.

٢) إيراده لشواهدَ ومقارناتٍ من الإنجيل والتوراة: في محاولة منه للتوفيق، أو لإظهار الفروق، أو لنفي أمرٍ أو تأكيده، أو للمقارنة بين روايتين عن حادثة واحدة والخروج برأي شخصي.

المرحلة الثانية: مرحلة الأهداف غير المعلنة

في منتصف القرن التاسع عشر نشطت الإرساليات التنصيرية، فلم يكن من المناسب مواجهة المسلمين بالأهداف الحقيقية من وراء سعي المستشرقين لترجمة معاني القرآن الكريم، وتظاهر الاستشراق بالإنصاف والموضوعية، ومن أشهر من عرف عنه الاهتمام بالدراسات القرآنية المستشرق الألماني تيودور نولدكه.

وفيما يلي دراسة لأشهر الترجمات في تلك المرحلة:

ترجمة رودويل (١٨٦٤م)[١]:

في منتصف القرن التاسع عشر -عام (١٨٦٤ م)- وبعد ترجمة جورج سيل بقرن من الزمان تقريبًا، ظهرت ترجمة جديدة لمعاني القرآن الكريم باللغة الإنجليزية، قام بها جون ميدوز رودويل، والذي كان يعمل قسيسًا لكنيسة St. Ethelberga في لندن، كما كان يعمل أستاذًا للدراسات الشرقية في جامعة كيمبردج.

تقويم الترجمة من الناحية العلمية:

١) طبعت حوالي (١٨) طبعة منذ عام (١٩٠٩م) عندما تبنتها دار نشر Everyman، بتحقيق القس (مارجليوث G. Margoliouth) والذي كتب لها مقدمة[٢].

---

(١) ينظر: تجربتي مع تقويم ترجمات معاني القرآن إلى اللغة الإنجليزية د. عادل بن محمد عطا إلياس، ضمن ندوة ترجمة معاني القرآن الكريم المنعقدة في المدينة المنورة ١٤٢٣هـ (٢/ ٦٩٩).

(٢) World Bibliography of Translations of the ،Ismat Binark and Halet Eren (Istanbul: ،Meanings of the Holy Koran Printed Translations- 1515- 1980 Art ، Research Centre for Islamic History ،1406/1989) ،Renkler Matbaasi pp.103- 110.،and Culture

٢) ولعل السر في إقبال المستشرقين علىٰ ترجمة (رودويل) يرجع إلىٰ بدعة أحدثها في المنهج القرآني المألوف، حيث رتب السور ترتيبًا زمنيًّا حسب نزولها، فبدأ بسورة (العلق)، واختتم بسورة (المائدة).

٣) زعم المترجم -زورًا وبهتانًا- أن السور التي بدأ بها -وهي: (سورة الزلزلة، والانفطار، والتكوير، والإنسان، والرحمن، والعاديات)، وغيرها- مشابهة في مضمونها للتوراة والإنجيل؛ لذلك فقد أحال القارئ في (سورة الرحمن) لمقارنتها مع المزمور رقم (١٣٦) من التوراة.

٤) زعمه الباطل - في كثير من الحواشي- أن النبي ﷺ قام بتعديل السور والآيات من حين لآخر.

وإلىٰ القارئ الحصيف بعض الأمثلة علىٰ ما في تلك الترجمة من تحريفات[١]:

١) في قوله تعالىٰ: ﴿سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ [البقرة: ٢٩]. يقول المترجم: إن عدد السموات السبع مأخوذ عن التلمود، أو من التراث المأخوذ عن التلمود، ولكن الفكرة الأساسية ربما يوجد لها جذور في تعبير الكتاب المقدس: السموات السبع.

---

(١) ينظر: تجربتي مع تقويم ترجمات معاني القرآن إلىٰ اللغة الإنجليزية د. عادل بن محمد عطا إلياس (٢/ ٦٩٩).

٢) في تعليقه على قصة آدم وإبليس في (سورة البقرة) يقول: إن أجزاء من القصة أُخذت عن كتب النصارى والتلمود. ويقارن النص القرآني بنص توراتي؛ ليؤكد أن القرآن قد تلقَّاه محمد الأميُّ ﷺ من الله العليم الحكيم، وتعامى المترجم عن نبوة سيدنا محمد ﷺ، وأن الله تعالى يوحي إليه بما شاء، ويعلمه ما شاء؛ يقول تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا﴾، وأميته ﷺ من أقوى الأدلة على ذلك.

٣) يقول عبد الله الخطيب -بعد عرضه لبعض الأمثلة على التحريفات والمغالطات الفاحشة في ترجمة رودويل-: "وهذه الأمثلة تؤكد أنه لا يجوز لغير المسلم ولا غير المتبحر في العربية أن يقوم بترجمة القرآن الكريم، وبان للقارئ المنصف قيمةُ ترجمة (رودويل) للقرآن الكريم، فالتلاعب بترتيب النص القرآني، والمقدمة المملوءة بالأخطاء والافتراءات والجهالات عن الإسلام والنبي، مع الأخطاء الكثيرة في ترجمة النص القرآني، كل هذا يجعل هذه الترجمة من الناحية العلمية ترجمة ضعيفة، وليست ذات قيمة، ومما يوصي به الباحث ضرورة منع هذه الترجمة من التداول".

ترجمة بالمر (١٨٨٠م)[١]:

في أخريات القرن التاسع عشر ظهرت ترجمة باللغة الإنجليزية للمستشرق الإنجليزي إدوارد هنري بالمر، وكان يدعو نفسه "عبد الله"، وقد أصدرت ترجمة جامعة أوكسفورد عام (١٨٨٠م) بتكليف من المستشرق الألماني ميكسو -رئيس قسم الدراسات الشرقية في جامعة اكسفورد آنذاك- وقد انتشرت هذه الترجمة انتشارًا واسعًا، وأعيد طبعها أكثر من مرة من قبل جهات مختلفة، وكان آخر إصداراتها (١٩٥٢م).

تقويم الترجمة إجمالًا:

بالرغم من (بالمر) قد تحرر كثيرًا من الأفكار الشاذة التي أوردها رودويل في ترجمته، إلا أنه لم يستطع التخلص من التقليد الشديد لجورج سيل الذي سبق تقويم ترجمته.

ترجمة القسيس وهيري (١٨٩٤م)[٢]:

في عام (١٨٩٤م) أصدر القسيس (وهيري) ترجمته للقرآن، وقد

---

(١) ينظر: دراسة نقدية لترجمة معاني القرآن الكريم إلى اللغة الإنجليزية محمد سعيد دباس (ص: ١٨٤).

(٢) ينظر: ترجمات إنجليزية لمعاني القرآن الكريم في ميزان الإسلام، د. وجيه حمد عبد الرحمن، ضمن ندوة ترجمة معاني القرآن الكريم المنعقدة في المدينة المنورة ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م. (١/ ٣٧٥)، ودراسة نقدية لترجمة معاني القرآن الكريم إلى اللغة الإنجليزية. محمد سعيد شفيق دباس (ص: ١٩٤- ١٩٥).

اعتمد فيها علىٰ ترجمة (رودويل)، وتفسير الملا حسن واعظ الكشفي من علماء الشيعة، وعلىٰ تفسير ألَّفه الشاه ولي الله الدهلوي، وزعم المترجم أنه جمع في ترجمته وجهات النظر بين الشيعة وأهل السنة.

تقويم الترجمة من الناحية العلمية:

١) ينقل المترجم بعض أقوال الشيعة الباطنية زاعمًا بأن للقرآن ظاهرًا وباطنًا، ويقول الدكتور عبد الله الندوي: "إن المتصفح لهذه الترجمة لا يجد شيئًا يؤيِّد دعواه، أو يدل علىٰ أنه استفاد من تفسير الشاه ولي الله الدهلوي إلَّا ما نقله من كتاب موضح القرآن للشاه عبد القادر الدهلوي ابن الشاه ولي الله الدهلوي، ويبدو جليًّا أنه أراد بعمله هذا تشويهَ عقيدة العلماء الباحثين حول القرآن الكريم، والقائلين بأنه منزه من التحريف".

٢) كما ينقل المترجم عن بعض الشيعة دعواهم بتحريف القرآن الكريم وأن هناك مصحفًا اسمه (مصحف فاطمة) لا يعرفه إلا الشيعة، وقد تداولته أيدي الخواص من الشيعة، وقد ردد المترجم هذا الافتراء علىٰ النبي ﷺ وعلىٰ هذا الدين العظيم، وأطنب في الحديث علىٰ هذا الموضوع؛ ليكتمل له الطعن في كتاب الله تعالىٰ.

٣) تعمد المترجم إثارة الشكوك والأوهام في أذهان الباحثين عن الحقيقة، وذلك بعرضه لما اختلف فيه أهل السنة مع الشيعة، كما أنه يطعن صراحة في سيرة النبي محمد ﷺ وصحابته الكرام.

ترجمة ريتشارد بل (١٩٣٧م)[1]:

في عام (١٩٣٧ م) أصدر المستشرق الإنجليزي ترجمته لمعاني القرآن الكريم، في أثناء عمله مدرسًا للغة العربية في جامعة أدنبرة بأسكتلندا، وقد طبعت في مدينة نيويورك بالولايات المتحدة الأمريكية، ثم أعيد طبعها في عام (١٩٦٠ م)، وهي تقع في جزأين كبيرين.

تقويم الترجمة من الناحية العلمية:

١) أحاط المترجم أقواله بالعلامات الفارقة للآيات زاعمًا -بحسب فهمه السقيم- أنها من سورة أخرىٰ، ومثال ذلك زعمه -العاري عن الدليل- أن الآية: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [آل عمران: ٢٦]، كانت سورةً مكيةً مستقلة!

٢) اتبع المترجم طريقة (رودويل)، فقام بقلب ترتيب السور والآيات علىٰ أعقابها وصدَّرَ كل سورة بنقدٍ مطوَّل عن تاريخ النزول وأسبابه، كما أدخل ملاحظاته وانتقاداته في ثنايا ترجمة النص.

٣) في أثناء الترجمة والتفسير يدخل كلماتٍ لا صلة لها بالقرآن الكريم لا من قريب ولا من بعيد؛ فيقول مثلًا: إن محمدًا ﷺ أراد أن يقول كذا، فعجز ولم يسعفه التعبير، فترك الجملة ناقصة!

---

(١) ينظر: ترجمات إنجليزية لمعاني القرآن الكريم في ميزان الإسلام، د. وجيه حمد عبد الرحمن (١/ ٣٧٥)، ودراسة نقدية لترجمة معاني القرآن الكريم إلىٰ اللغة الإنجليزية. محمد سعيد شفيق دباس (ص: ٢٠٠- ٢٠١).

ترجمة آرثر آربري (١٩٦٤م)[١]:

في عام (١٩٦٤م) صـدرت ترجمـة المستشـرق آرثـر جـون آربـري، بعنوان "القرآن مفسرًا"، وقد تميزت تلك الترجمة عما سبقها بأسلوبها المعاصر الواضـح، وسـهولة لفظهـا، وحـرص صـاحبها علىٰ الالتـزام بترجمة كلِّ لفظ ورد في القرآن الكريم من دون نقـص، أو زيـادة؛ فضـلًا عن خلوها من أيِّ نوع من أنـواع الـتهجم، أو محاولـة التشـويه لجمـال القرآن الكريم، أو الطعـن في الإسـلام، أو التقليـل والازدراء مـن شـأن النبـي الكــريم ﷺ، كمــا هــو العــادة المضــطردة في ترجمــات أكثــر المستشرقين.

أهم مميزات وخصائص تلك الترجمة:

١) لـم يكتـفِ (آربـري) بترجمـة القـرآن الكـريم، بـل أعطـىٰ رأيـه فيـه، وقارع المستشرقين الآخرين؛ مؤكـدًا علـىٰ تناسـق آياتـه في المعـاني والـدلالات، كمـا أشـاد بالقـدرة الإلهيـة التـي أنزلـت الـوحي علـىٰ النبي محمد ﷺ.

٢) دافـع (آربـري) بقـوة عـن فصـاحة القـرآن، وجمالـه، وإعجـازه، وبلاغتـه، واعـترف "بـأن القـرآن الكـريم وحـي مـن قـوة خارقـة،

(١) ينظـر: دراسـة لترجمـة معـاني القـرآن الكـريم إلـىٰ الإنجليزيـة (القـرآن مترجمـا) للمستشرق الإنجليزي آرثر ج. آربري، د. هيثم بـن عبـد العزيـز سـاب، ضـمن نـدوة ترجمة معاني القرآن الكريم المنعقدة في المدينة المنورة ١٤٢٣هـ (١/ ٣٣).

وأن الرسول محمد تلقاه وحيًا"، مفنِّدًا بذلك مزاعمَ المستشرقين المغرضين، ومن أجل تقريب صورة القرآن الكريم إلىٰ أذهان الغربيين قام بنشر آيات مختارة من القرآن الكريم تحت عنوان: «القرآن المقدس».

٣) رَدَّ (آربري) علىٰ دعوات بعض الغربيين الذين يروجون إلىٰ عدم ترابط آيات القرآن الكريم، بقوله: «إن الآيات في كل سورة مترابطة في خيوط من الإيقاع المرن، ووحي واحد متوافق داخليًّا إلىٰ أعلىٰ درجات التوافق»، كما أقرَّ بتأثير القرآن النفسي علىٰ الإنسان، وأن تأثيره تأثير إيجابي.

٤) التزم المترجم بالنص الأصل وحاول أن يخرج بترجمة متميزة، ولكنه أقرَّ في آخِرِ سطرين من تقديمه لترجمته أنها: صدىٰ باهت للأصل العظيم ليس إلَّا..(poor echo though it is of the glorious original) وهذا اعتراف يجب أن نسجله لآربري بحروف ناصعة.

٥) كتب آربري في مقدمة ترجمته لمعاني القرآن الكريم: "أحمد تلك القدرة الإلهية التي أنزلت الوحي علىٰ ذلك النبي محمد ﷺ الذي كان أول من تلا آيات القرآن الكريم"، كما أوضح "أن القرآن الذي نقرأه اليوم هو نفسه الذي جُمع في عهد الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه وأنه لم يحرَّفْ أو يبدَّل"، ويعد هذا -بحد ذاته- ردٌّ مفحم علىٰ جمهرة المستشرقين المتعصبين.

سلبيات الترجمة من الناحية العلمية:

يمكن إجمال بعض سلبيات ترجمة آربري فيما يأتي:

١) أن المترجم اختار صيغة النظم الشعري لتصميم الشكل العام لنص ترجمتـه، واختـار تقسيم الآيـات في مجموعـات وأنمـاط نسـقية لا تعتمد رقم الآية، وزعم أنه ابتدع جانبًا جديدًا في ترجمة القـرآن لـم يأتِ به مَن سبقه مِن المترجمين في أي لغة من اللغات.

٢) اعتمـد المـترجم الجانـب الإيقـاعي الصـوتي للآيـات، وهـذا يُعَـدُّ إحدىٰ سقطاته، وتمثـل خلـلًا في فهمـه؛ إذ اعتقـد -خاطئًـا- قدرتـه علىٰ محاكاة الإيقاع الصوتي القرآني.

٣) لا تخلو الترجمة من بعض الأخطاء العقدية، ومنها: أنه ترجم معنىٰ «استوىٰ» في الآية الكريمة: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ﴾ [البقرة: ٢٩] بما صار معناه: «ثم رفع نفسه إلىٰ السماء» Then He lifted Himself to Heaven، والصحيح أن معناها في هذه الآية: قصد وعمد؛ يقول الحافظ ابن كثير (ت ٧٧٤ هـ): "أي: قصد إلىٰ السماء، والاستواء ها هنا تضمن معنىٰ القصد والإقبال؛ لأنه عدي بإلىٰ"[(١)].

الخلاصة: يرىٰ الدكتور هيثم بـن عبـد العزيـز أن ترجمـة (آربـري) تعد من أفضل الترجمـات الاستشـراقية التـي يمكـن الاستفادة منهـا في

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٢١٣).

مجال الدعوة، كما ينصح بتشكيل لجنة من المتخصصين لمراجعتها، والاستفادة منها بعد التعديل والإصلاح[١].

السّمات العامة لترجمات المستشرقين:

من خلال العرض السابق يمكننا الوقوف علىٰ أهم السمات لترجمات المستشرقين لمعاني القرآن الكريم؛ ليكون المسلمون علىٰ بينةٍ من أمرها[٢]:

١) عدم التعمق والالتزام بالمعاني المعجمية للألفاظ القرآنية، واحتواء بعضها علىٰ مغالطات كثيرة وخطيرة، باستثناء بعضها كترجمة آربري.

٢) استعمال الترجمة باعتبار المعاني المفردة، دون النظر إلىٰ المعنىٰ التركيبي للآيات، ولا سياقها، وتعمد تشويه المعنىٰ، وقلب الحقائق.

٣) عدم الاعتناء ببيان ما في الآيات من معانٍ بديعة ومجازية؛ مما أفقد الترجمات عنصر الجذب والتأثير علىٰ القارئ.

---

(١) ينظر: دراسة لترجمة معاني القرآن الكريم إلىٰ الإنجليزية (القرآن مترجما) للمستشرق الإنجليزي آرثر ج. آربري، د. هيثم بن عبد العزيز ساب (١/ ٧٢- ٧٥).

(٢) ينظر: ترجمة معاني القرآن الكريم والمستشرقون.. لمحات تاريخية وتحليلية، د. أحمد مهر علي (٦/ ٢٥٠٥)، ومناهج المستشرقين في ترجمات معاني القرآن الكريم د. عبد الراضي بن محمد عبد المحسن (٦/ ٢٥١١، ٢٥٢٠).

٤) عدم الاعتناء بأسباب النزول، ولا بعدِّ الآيات؛ فقد تُدمج آيات، أو تقطع الآي، وكذلك ابتدع بعض المستشرقين طرقًا خاصة بهم في ترتيب السور، فرتبها بعضهم حسب تاريخ النزول، ورتبها بعضهم حسب الإيقاع الموسيقي -علىٰ حد تعبيره -.

٥) عدم التعرض لبعض الأدوات الضرورية التي تساعد علىٰ فهم الآيات القرآنية؛ كالنصوص الحديثية مثلًا.

٦) ظهور أثر ديانة المترجم ومستواه المعرفي والثقافي والحضاري علىٰ الترجمة؛ مما يجعلها تتصف بعدم الإنصاف أو الحيادية، ويظهر هذا واضحًا في إخفاء -معظمها- أو التلاعب بالآيات التي تدين عقيدة الثالوث، أو تأليه السيد المسيح عيسىٰ ابن مريم عليه السلام.

نخلص مما سبق بعدة نتائج:

١) إن ترجمات المستشرقين لمعاني القرآن الكريم -في غالبها- ترجمات غير أمينة، ولا يمكن أن تعبر عن المعاني الحقيقية للقرآن، بل تشوه معانيه وتحرفها؛ لأنها تنطلق من اعتقاد أساسي راسخ عند هؤلاء المترجمين، وهو رفض حقيقة أن القرآن منزَّل من عند الله، وجعله من تأليف النبي محمد صلىٰ الله عليه وسلم، وإنكار أميَّته، ومحاولة إثبات أنه نقل عن القدامىٰ، أو قلَّدهم، والعمل علىٰ إبراز أن القرآن الكريم مليء بالعبارات المثيرة للسخرية أو الغموض، وأنه لا يتضمن أيَّ تشريع يذكر، ومن طرائقهم في تمرير هذا الكذب والبهتان: اختيارهم لعبارات معينة،

واستخدامهم الهوامش والتعليقات في آخر الصفحات، إضافة إلىٰ المقدمات التي يكتبونها، والتي تعطي لهم المساحة الكافية للتزييف والتحريف.

٢) أنها لا تصلح للاستفادة منها أبدًا في مجال الدعوة، بل تُعَدُّ عائقًا كبيرًا أمام انتشار هذا الدين، ولا يستثنىٰ من ذلك إلا ترجمة (آربري) الإنجليزية التي خلت من نبرة الهجوم والتحريف، مع الأخذ بالحيطة في استعمالها والنقل منها.

٣) وبناء عليه فلا يجوز للمسلمين الاعتماد علىٰ تلك الترجمات في فهم معاني القرآن الكريم.

٤) كما يجب علىٰ المسلمين تحذير بعضهم وغيرهم من خطورة هذه الترجمات بكل وسيلة مقروءة ومسموعة، وكشف الحقيقة للمخدوعين.

والحمد لله رب العالمين الذي أنزل القرآن ووعد بحفظه؛ فقال تعالىٰ: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩]، وصلىٰ الله علىٰ نبينا محمد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين[١].



---

(١) إعداد: علاء إبراهيم.

٨

نماذج من الالتفاف على النصوص الشرعية عند الحداثيين

قامت النظرةُ الحداثية على اعتبار الدِّين قيمةً اغتصبت مركزَ القيادة في المجتمع، وحقُّها أن تُجعل في قفص الاتِّهام، ومن هنا جعلوا الوحي مرمًى لساهمهم، وحاولوا جعل جسور منيعة دونه للحيلولة بين الناس وبينه، وكان من أهم هذه الجسور التأكيد على انتهاء صلاحية العلوم المتعلّقة بالوحي وفهمه؛ ليتسنىٰ لهم بعد ذلك الانفراد به على أساس أنه نصّ لغويٌّ تكفي المداخل الأدبية لفهمه والتعامل معه، ويكون الجميع مؤهَّلا لتفسيره انطلاقًا من تخصُّصه ولو كان أجنبيًّا؛ لأن الوحي وفق هذه النظرية مجردُ نتاج لغويٍّ ينتمي إلىٰ ثقافة محدودة، تمَّ إنتاج معانيه انطلاقا من تلك الثقافة التي شكَّلت نظامه الدلالي والمركزي.

وقد بخل كثير من الحداثيين في تناوله للوحي على الوحي بلفظ يناسبه، فاستبدلوا بلفظ القرآن الكريم لفظ: ظاهرة القرآن، وهذا الشح في التسليم بقداسة الوحي ليس لغرضٍ نزيه، وليس دافعه التثبت في النسبة؛ وإنما لتبرير الزهد المبكر في النصوص، والتعبير عن عدم الاطمئنان لنصوص الوحي بالتشكيك في مدىٰ كونه محفوظًا، وقد أكَّد بعضهم على التفريق بين الوحي الملفوظ وبين الوحي المدوَّن،

فالوحي الذي تلفَّظ به النبي ﷺ علىٰ مدىٰ ثلاث وعشرين سنة لا يمكن أن يكون هو نفسه الوحي الذي جمع، فقد كانت هناك ظروف وملابسات صاحبت هذا الجمع والتدوين تجعل إمكانية التسليم بأنه وحي خال من التأليف ومن مشاركة الآخرين فيه أمرًا مستبعَدًا. وهذه النظرية مجرد تمهيد للالتفاف علىٰ نصوص الوحي بعد ذلك، وإخضاعها لعمليات تشريح تأويلية لا تخضع لأي مقومات موضوعية، وتجعل من النصوص مجرد أدوات احتياطية لتمرير الأفكار وكسبها نوعًا من المصداقية الآنية عند المجتمعات المتديِّنة تديُّنًا سطحيًّا.

ونظرا للحاجة الماسة لمعرفة طرق تعامل هذه المدرسة مع الوحي فسوف نقوم بدراسةٍ لبعض مظاهر الالتفاف علىٰ النصوص عندها، وكيف يتم هذا الالتفاف، مع مناقشتهم في هذا الاحتيال العلمي، وبيان مدىٰ إمكانية تسمية هذه الممارسات نشاطًا علميًّا مع ما تتسم به من عدم الجدية في تناول النصوص.

والناظر في الحالة الفكرية للتيار الحداثي يجد نماذج كثيرة للتحايل علىٰ النصوص ومحاولة توظيفها لصالح مقاصد أجنبية علىٰ الشرع، ومن هذه النماذج:

أولًا: علاقة النص بالمصلحة:

لقد كان لتبني التيار الحداثي للإسلام مشاركة قوية في إقناع أنفسهم وبعض المغرَّر بهم بأن هذه الآراء هي داخل المساحة

الاجتهادية المتاحة لأي معتن بالعلوم الشرعية، ومن ثم تناولوا بعض المباحث الشرعية تناولًا شكليًّا من أجل كسب مصداقية شرعيّة تسمح بالمنازلة في الساحة الشرعية، وكان من بين هذه المباحث مبحث المصلحة، وكان إسهام الحداثيين في هذا الميدان يتمثّل في نقلهم مفهوم المصلحة من مفهوم منضبط له مصداقيةٌ شرعيةٌ إلىٰ مفهوم عائم غير منضبط، ويعدُّ التأكيد عليه أمرًا مهمًّا حسب النظرية الحداثية؛ حيث جعلوا من المصلحة فكرة لمعارضة العلة وإلغاء النص الذي هو سبب وجودها ومراعاتها، يقول فهمي هويدي: "إذا حدث التعارض بين النصوص وبين أيٍّ من مصالح الناس المعتبرة فلا مجال لتطبيق الأولىٰ، وتُغَلَّبُ المصلحة علىٰ النص في الثانية"[1].

وبنوا علىٰ هذا تخطئة الفقهاء الذين يربطون تطبيق الشريعة بتطبيق أحكامها، فتطبيق الشريعة عند الحداثيين يكون بتطبيق روحها[2].

وذهب الجابري إلىٰ أبعد من ذلك، فرأىٰ أن العلة ليست موجبة للحكم، وانتقد القاعدة المعروفة: "الحكم يدور مع علته وجودًا وعدمًا"، واعتبر أن المصلحة هي الحاكمة علىٰ النص[3]، ومراده من ذلك ألا يتقيد بالعلة التي هي مناط الحكم؛ لأنها قد تقيده في التعامل

(١) التدين المنقوص (ص: ١٧٦).

(٢) ينظر: جوهر الإسلام، لمحمد عشماوي (ص: ٣٧).

(٣) ينظر: وجهة نظر (ص: ٦٣).

مع النص بوجودها من عدمها، فَعَوَّضَ ذلك بِالتَّمَلُّصِ منها، وتعليق الحكم بمفهوم عائم هو المصلحة، دون أن يضع لها تعريفًا أو ضابطًا.

وتوصَّلوا من خلال هذا الطرح إلىٰ أن فكرة النسخ ليست خاصة بالنص الشرعي، بل هي موكولة إلىٰ الأمة؛ لأن الأحكام ليست مطلقة، بل هي نسبية خاضعة للظروف الزمانية والمكانية، ولهذا فقد نسخ عمر بن الخطاب ﷺ حكم المؤلفة قلوبهم، وأوقف توزيع الأرض المفتوحة علىٰ الغانمين[١].

وقد توالت كلمات الحداثيين في تمجيد المقاصد ورفعها في وجه أصول الفقه كأداة للاستنباط، كما جعلوا منها سجنًا للنصوص الشرعية المرتهنة للواقع الاجتماعي والسياسي والزماني حسب زعمهم، واعتبروا أن الفكر الديني مرتبك بسبب سيطرة فكرة قداسة النص واعتباره متجاوزًا لواقعه، ولا حَلَّ إلا في التخلص من قداسته لصالح المصلحة والمقصد، كما فعل عمر بن الخطاب بزعمهم[٢].

واعتبروا المقاصد هي الملاذ الوحيد الذي يُمكِّنُ المجتهد الحداثي من نسخ ما فُقِدَتْ مصلحته، ويتخلص من سلطة النص، ويصبح حُرًّا في كيان التشريع الإسلامي[٣].

---

(١) ينظر: التجديد في الفكر السلامي، لعدنان أمامة (٤٦٣).

(٢) ينظر: الدين وتطبيق الشريعة، للجابري (ص: ١٢).

(٣) ينظر: ورقة علمية: "مقاصد الشريعة دراسة نقدية للأغلاط والفجوات المعرفية للتيار الحداثي"، للحضرمي أحمد الطلبه.

وهذه النظرة الالتفافية على النص تتمُّ من خلال رفع شعار المصلحة كمعول هدم للنص ولمعناه، واعتبار العلة المنضبطة نوعًا من التجميد لدلالة النص، وممارسة عمليات ترفيهية تحت غطاء المصلحة للتقليل من تدخل النص في الحياة العامة، وتضييق دلالته وقصرها على زمن معين؛ ليتم التعامل معه بعيدًا عن أي ضوابط، وترك العلاقة مباشرة بين المتلقي البسيط وبين النصّ؛ بعيدًا عن المعايير العلمية المشكِّلة لعقلية التعامل مع النص، وتستبدل جميع المعايير بمفهوم المصلحة الذي هو مفهوم عائم عند القوم، بينما حين تتم محاكمة هذا التعامل إلى الطرح الفقهي المتزن نجد أنه ناقص علميًّا ومقصِّر من الناحية الاجتهادية، ودليل ذلك باختصار قلة الإنتاج العلمي وضعف المساحة الاجتهادية التي يغطيها الطرح الحداثي، فالمفروض أنه بتعليته المصلحة ورفع شعار الاجتهاد والمقاصد يوجد إنتاج علمي جاد يعبر عن جدية في البحث العلمي وقدرة على المنافسة لتراث بحجم الإنتاج الفقهي، فأي مراجعة فكرية يقصد منها المقارنة بين الإنتاج الفقهي والتحايل الحداثي تجعل الشخص يدرك بدون عناء أن الممارسة الحداثية تعني الانسحاب الكلي من الشريعة والجلوس تحت الظل بسبب تضييق مجال النص؛ لذا لم يكن للقوم رأي يذكر غير التشغيب في كثير من المجالات الشرعية، فلا تجد لهم ذكرا في أبواب المعاملات والأنكحة والسياسة الشرعية، غير آراء تخرج في شكل تشغيب واعتراضات غير موفقة.

بينما المصلحة في الشرع مفصلة ومحددة، فهي في الشرع يقصد بها لذَّاتُ الدنيا وأسبابها وأفراحها وأسبابها، ويقصد بالمفسدة آلام الدنيا وأسبابها وغمومها وأسبابها، وهذه أمور معلومة بالعادات.

وأما لذات الآخرة وأسبابها وأفراحها وأسبابها وآلامها وأسبابها وغمومها وأسبابها فقد دل عليها الوعد والوعيد والزجر والتهديد.

فأما اللذات ففي مثل قوله: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الزخرف: ٧١].

وأما الأفراح ففي مثل قوله: ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ [الإنسان: ١١]، وقوله: ﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [آل عمران: ١٧٠].

وأما الآلام ففي مثل قوله تعالىٰ: ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾ [البقرة: ١٠].

وأما الغموم ففي مثل قوله تعالىٰ: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [الحج: ٢٢].

فهذه هي قاعدة المصالح والمفاسد التي تعرف بها[1].

---

(١) ينظر: القواعد الفقهية الكبرىٰ، للعز بن عبد السلام (١/ ١٥-١٦).

ثانيًا: الموقف من النص:

يعدُّ الإيمان بالوحي ضرورة للإيمان بالله ﷻ؛ لأنه منه جاء، وأي نظرة لا تقدِّس الوحي ولا تعترف به لا يمكن أن تكون نظرة دينية، كما أن نزعه من الأولية في ترتيب الأدلة يؤثر على فكر المتعامل مع الوحي وفي تعاطيه مع قضاياه.

وقد حسم الحداثيون مشكلتهم مع الوحي، وقرروا الانتساب للإسلام وأهله ومحاولة إصلاحه من الداخل -على حد زعمهم-، وشهروا سلاح المصلحة في وجه النص كما مر معنا، وهذا التصرف جعل النص في مقاعد الاحتياط، وجعل الحداثيين في معركة دائمة مع النص، وتظهر هذه المعركة في شكل ملامح واضحة لا تخفى على مهتمٍّ ومتابع للمنجزات المعرفية لهذه المدرسة، وقد كان لهذا الصراع مظاهر:

المظهر الأول: التشكيك في مدى قدرة النص على إصلاح الحياة:

وقد عبروا عن هذا الهدف بعبارات متنوعة ترجع في مجملها إلى التشكيك وعدم الاعتراف للوحي بالقدسية والأسبقية في فهم الأمور، أو القدرة على معالجتها، وهذا ما عبر عنه علي حرب بـ: كشف الآلية الفكرية التي تحيل التاريخ إلى متعال، والخصوصي إلى كوني، والدنيوي إلى مقدّس[1].

---

(١) ينظر: نقد النص (ص: ٦٥-٦٤).

كما عبروا عن مدىٰ استيائهم من الحديث عن الجنة والنار والحور العين وغيرها من الملذات بوصفها مواضيع ثانوية لا ينبغي الحديث عنها في ظل العولمة، يقول تركي الربيعة: "لقد أصبح المسلم يتعرض للإحراج من كثرة حديث القرآن عن اللذات في الجنة والحور العين"(١).

وانطلاقا من هذا التعطيل الضمني لموضوعات كثير من النصوص الشرعية واعتبارها خطابا جماهيريًا بدائيًا، فإن تعاملهم مع النص لم يكن قائمًا علىٰ مبدأ التسليم، ولا علىٰ إعطاء الأسبقية له في التوجيه والإرشاد، وإنما جعلوه غطاءً ومبررًا لا مرجعًا ومستنَدًا، ودليل ذلك أن البحث الحداثي في النصوص اتجه نحو المضامين قصد وجود مبررات تشهد للتوجّه الحداثي الذي يريد من الوحي مجرد مبرر للإنجاز الحضاري ومشيد به، وهنا يقع إشكال آخر ربما لا يتنبه له الحداثيون بسبب الحماس للفكرة، وهو أن سؤال الإضافة لا يزال قائما، فالغرب لا ينتظر منا كي يقبلنا كأمة حضارية أن يجد في نصوص تراثنا الديني ما لا يتعارض مع قيَمه أو يشهد لها، فليس كافيا في قبول أي طرح أن يكون متماهيًا مع طرح آخر مع تفوُّق الآخر عليه في الإنجاز، ثم إن غض الطرف عن حاجة المسلمين لفهم القرآن وفصلهم عنه بهذه الطريقة التعسفية هزيمة حضارية تنضاف إلىٰ الشعور النفسي الذي ينتاب جميع رواد هذه المدرسة، وهو تعبير عن

(١) العنف والمقدس والجنس في الميثولوجيا الإسلامية (ص: ١٢٩).

العجز عن المجاراة الفكرية والعلمية للغرب؛ بدليل أن العالم الناهض ليس سبب نهوضه المادي هو ترك دين معين أو تبني دين آخر، فهو يعيش ثقافات مختلفة، وأكثر أهله إضافة لهذه الحياة هم أناس أتباع ديانات خرافية غير مقنعة مثل البوذية والمجوسية والهندوسية؛ مما يدل على أن عقدة التدين التي تسكن هؤلاء لا علاقة لها بالإنجاز، فالآليات لا تحمل ولاءً لأحد، وإنما هي تابعة لسنن كونية، من نجح في استخدامها فسوف ينهض بها بغضِّ النظر عن دينه، لكن الحداثيين لا يسلّمون للأسف بهذه الحقيقة الواقعية، ويصرون على الربط بين ما في مخيلتهم عن النصوص وبين واقع الأمة، والعجب من ذلك أن يتجاوزوا الألفاظ التي أعلن القرآن العداء معها ليردوه إليها ويصفوه بها، فهذا عراب الفكر الحداثي محمد أركون يعلن أن ابن إسحاق أسهم في عملية التمويه والتعمية ضد الجاهلية التي كان القرآن افتتحها[1].

ولم يحدد لنا معالم الجاهلية في القرآن، وهل كان ابن إسحاق بهذه الدرجة من التأثير في الأمة والمحورية ليؤسس لشرع جديد، أو يخفي شيئا منصوصًا في الوحي.

هذه الكلمة من أركون -والتي أعيدت صياغتها عند بقية القوم- ليس لها أي قيمة علمية ولا موضوعية، ولا تستند إلى معاير موضوعية

---

(١) تاريخية الفكر العربي الإسلامي (ص: ٧٢).

لا مـن التـاريخ ولا مـن ذات النصـوص، ولكنهـا فقـط تعـبر عـن مـدى الاستياء من الـوحي ومـن توجيهاتـه، وهـي تحمـل في طياتهـا انكسـارًا معرفيًّا.

أما المنهجية العلمية التي يتبعها علماء المسلمين في فهم الوحي والتعامل مع تقريراته فلا يمكن التعالي عليها ولا تجاوزها ولو نفسيًّا، إلا بممارسة التشغيب والتمويه الثقافي في نقد العلوم الإسلامية، وإعطاء مواقف غامضة من النص تجتمع في نزع القداسة عنه، وعدم التسليم له، مع الإفاضة بدون إضافة في مواضيع من نحو: قراءة التراث، وإعادة ترتيب العلوم؛ ليتسنى للشخص التنقل بشكل سلس بين العقل والوحي والذوق الشخصي، دون استناد إلى معيار علمي في سبب هذا التنقل ودوافعه، وهذا ما يمكن تصنيفه وفق الآليات العلمية الجادة بالتحايل والالتفاف، وهو شيء قد رفضه القرآن على مستويين: المستوى الأول: في التعامل مع الدين، والمستوى الثاني: في التعامل مع الوحي، فقد ذم الله ﷻ من قال: إنه سوف يأخذ هذا الدين أخذا مؤقتًا، يتبناه في وقت دون وقت، وبين أن هذا المسلك غير مقبول؛ لما يتسم به من عدم الجدية وفهم حقيقة الدين، قال تعالى: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٧٢، ٧٣].

هذا بالنسبة للدين، وكذلك الحال بالنسبة للحوادث الكونية، فإنه لا يمكن أن تكون علاقة الإنسان بالوحي علاقة نفعية محضة؛ إذا تبناه وأنجز يزداد تبنيا له، وإذا أخفق تركه، فهذا الهزل في التعامل لا يليق بالفكر الجاد، فضلا عن الدين، قال سبحانه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الحج: ١١].

"يعني جلّ ذكره بقوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ أعرابا كانوا يقدمون على رسول الله ﷺ مهاجرين من باديتهم، فإن نالوا رخاء من عيش بعد الهجرة والدخول في الإسلام أقاموا على الإسلام، وإلا ارتدّوا على أعقابهم، فقال الله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ﴾ على شك، ﴿فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ﴾ وهو السعة من العيش وما يشبهه من أسباب الدنيا اطمأنّ به، يقول: استقرّ بالإسلام وثبت عليه، ﴿وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ﴾ وهو الضيق بالعيش وما يشبهه من أسباب الدنيا ﴿ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ يقول: ارتدّ فانقلب على وجهه الذي كان عليه من الكفر بالله"[(١)].

فاشتراط الإنجاز الحضاري من أجل قبول الدين خارج عن ماهيته، حتى مع وجوده ومع اليقين أن المسلمين كانت لهم إسهامات قوية في الحضارة الإنسانية، سواء على مستوى البناء العمراني أو على

---

(١) تفسير الطبري (١٨/ ٥٧٥).

مستوىٰ القيم والأخلاق والأفكار، لكن الإسلام لا يُعرَف من هذه الناحية ولا يُفهَم، بل إنما يفهم من ذاته ومن نصوصه المعبِّرة عنه، ومن تطبيقات الجيل الأول لهذه النصوص؛ لأنه المخاطب بالوحي ابتداء؛ ولذلك فإنه من الاحتيال علىٰ الوحي أن يستبعد النموذج الذي يعد تحقُّقًا عمليًا لأوامر القرآن كما أراده الله ويستبعد تطبيقه، ويتعامل مع النصوص بعيدا عن مراعاة علم الصحابة وفهمهم؛ ليقع الإنسان في جدلية بين النص ومعناه، وبين النص وتطبيقه، وقد يصل في مرحلة من المراحل إلىٰ أن التعامل الأمثل مع النص يكمن في تعليقه وجعل مسافة فاصلة بين النص والواقع تجعل النص غير قادر علىٰ مسايرته ومتابعته؛ مما يجعل إمكانية طرحه والاستغناء عنه ريثما يطوِّر نفسه بنفسه أمرًا مطروحًا ومقبولًا.

المظهر الثاني: الانقلاب على المعايير:

مر معنا في أول هذه الورقة مستوىٰ التحفظ الذي اتَّسمت به النظرة الحداثية للوحي، والذي ظهر في شكل موقف من الوحي يجعل مبدأ الشك ظاهرة لا تخفىٰ علىٰ دارس لهذه المدرسة ومنتجها العلمي والفكري، ولا شك أنه لا بد من اختلاق مبررات لهذا التحفظ، وقد كان من بين هذه المبررات الموقف من العلوم المعيارية، والتي تضبط وتعين المنهج السليم في التعامل مع الوحي ثبوتًا واستدلالًا، وهذه العلوم أساسًا هي علوم القرآن ومصطلح الحديث وأصول الفقه، ففي جانب علوم القرآن شكّلت إشكالية اللغة التي دُوِّن بها العلم الإلهي في

اللوح المحفوظ أصالة، ومن ثم اصطدموا بهذا الإشكالية، فقد افترض بعضهم أن القرآن حُفظ بالمعنىٰ دون الحرف، واعتبر اللغة عاجزة ومقصِّرة، وهي تعبر عن الأحداث أكثر من تعبيرها عن الحقائق(١).

وهذا التشكيك في اللغة واتهامها بالعجز يعني بطبيعة الحال تجاوزها وعدم اعتبارها في تفسير الوحي، ولم يقف القوم عند هذا الحد، بل تجاوزوه إلىٰ التشكيك في الناسخ والمنسوخ وأسباب النزول وغيرها من العلوم، وكل هذا محاولة منهم في رفض فكرة التفسير التراثي للقرآن، وإحلال مفاهيم أجنبية ومبسّطة محل العلوم المعيارية، ولا شك أن استبعاد أيِّ دورٍ للغة في فهم القرآن وعدم اعتبار العلوم الخاصة به علومًا تستحق الاعتبار لا يعدُّ التفافًا علىٰ النصوص وتفرُّدًا لصوصيًّا في تأويلها فحسب، بل هو أيضًا عملية سطوٍ معرفيٍّ مجرَّم، لا يمكن فهمه إلا في إطار العداء الحقيقيّ للنص؛ لأن استبعاد هذه العلوم يخرج القرآن عن معناه ومقصده، ويجعله يحاكم إلىٰ مفاهيم قوم لا يؤمنون به.

أما السنة النبوية فقد عمدوا إلىٰ تجاوز علم الحديث عمومًا واعتباره صنعًا بشريًّا، وجميع النصوص المنسوبة للنبي ﷺ هي نصوص وضعت عليه؛ إما من طرف الصحابة أو من طرف مصنفي السنة النبوية، ومما يدل علىٰ الكسل المعرفي تركيزهم علىٰ الرواة

---

(١) ينظر: القرآن الكريم وعلومه في فكر حسن حنفي (ص: ٤٩).

المكثرين في حد زعمهم، واعتبار الإكثار من الرواية دليلا على الكذب، وكأن المسلمين كانوا جالسين يتلقون كل ما يروى لهم عن رسول الله صلى الله عليه بأفواه فارغة، فمثلا حين يشكك الحداثيون في مرويات أبي هريرة على أنها وصلت خمسة آلاف حديث، فهذا يدلُّ على عدم استيعابهم لهذا العلم وجهلهم به إلى حد الجهل المركّب، فهم يخلطون بين الرواية والطرق، ويخلطون بين المكرر وغيره، وبين الضعيف والصحيح، وبين ما انفرد به أبو هريرة وبين ما لم ينفرد به، فإذا كان مجموع ما روى أبو هريرة عدده خمسة آلاف حديث -إن سلمنا بذلك- فما نسبة المكرر فيه؟ وما نسبة ما انفرد به أبو هريرة؟

والجواب على السؤالين: أن ما انفرد به أبو هريرة لا يتجاوز أربع مئة حديث، ومجموع رواياته لا تتجاوز ألفا وثلاث مئة حديث، وبين هذا وذاك يبقى النقاش في الصحيح منها والضعيف، وهو ما كفى علماءُ الحديث الأمةَ مؤنةَ تمييزه.

والعجب أن هذا الجهل المركب الذي يتميز به الحداثيون في هذا الباب لا يستحيون منه ليكون مدعاة لسكوتهم لا لنقدهم.

ومن نماذج إنكار العلوم الحديثية العمد إلى المصنفات في السنة النبوية والتشكيك في مروياتها وطبيعة تدوينها(١)، وكما مرَّ فإن هذا راجع إلى الجهل بطبيعة التدوين الحديثيّ، وأنه كان مبكّرًا، وتم وفق

(١) ينظر: إسلام المجددين (ص: ١٠٦)، الإسلام والحداثة (ص: ٧١) وما بعدها.

آليات معيَّنة لا يمكن التحايل عليها، فقد كان أهل الحديث معتنين بالرواة وبشيوخهم وبتلامذتهم وبأحوالهم، وهذا الاعتناء لم يقف عند معرفة حال الرواة، بل تجاوزه إلىٰ ضبط الألفاظ الصادرة عنهم، وهل هي محتملة للسماع من غيره، فيجعلون ما كان محتملا للسماع موهمًا له تدليسًا، ويفصِّلون فيه تفصيلات كثيرة يمكن مراجعتها في كتب هذا الفن، إلا أن مؤدَّىٰ إنكار علوم الحديث والتشكيك فيها هو التفاف علىٰ نصوص كثير من الوحي، وإهدار لها، وإحلال للهوىٰ محلَّها.

وحين تأتي لأصول الفقه يفاجئك مستوىٰ السطحية التي يتحلىٰ بها الحداثيون مع آليات عميقة بحجم أصول الفقه، وأي فحص لمدىٰ الأهلية يكشف ما قلنا. فهم ينسبون أصول الفقه للشافعي في غلطٍ عجيب بين إفراد الفنّ بالتصنيف وبين إنشائه، وممن نَظَّرَ لهذا نصر أبو زيد في كتابه "الشافعي وتأسيس إيديولوجيا الوسطية"[1].

وقد نوع العبارة في هذا الكتاب للتأكيد علىٰ هذا المعنىٰ، مع اعتبار علم أصول الفقه صناعة بشرية بحتة ينبغي إخضاعها للنقد والرد كما هو شأن جميع المنجزات البشرية، وهذا خلط بين الجانب الفني وهو التقسيم والتعريف والتأليف والتنظيم، فهذا جهد بشري؛ ولذلك اختلفت فيه أنظار المؤلفين، ولم يزل إلىٰ اليوم يعيش ازدهارًا وبناء متجدّدًا، والجانب الثاني: هو المحتوىٰ، وهو قائم علىٰ جانبين: المصادر الإجمالية كالكتاب والسنة والإجماع والقياس، والثاني هو

---

(١) ينظر: (ص: ٢٥٩) وما بعدها.

قواعد فهم النص كدلالة الأمر والنهي والناسخ والمنسوخ والتعارض والترجيح، فهذه المحاور موجودة قبل الشافعي، ومتقرِّرة قبله، فمصارد التشريع وقواعد فهمه لا مجال لأحد في إنشائها، ومساهمة الشافعي فيها هي إفرادها بالتأليف لا غير؛ ولذلك حين يختلف العلماء لا يتنازعون في أن هذه الآليات حاكمة لتصوُّراتهم وأفكارهم تجاه النصوص.

ولِتجاوز أصول الفقه مظهرٌ آخر عند القوم وهو خلق صراع بين الأدلة الشرعية والعقلية، واعتبار الأدلة العقلية قسيمًا للأدلة الشرعية، ومن هنا يفتعلون صراعًا بين الأدلة العقلية والأدلة الشرعية، والحقيقة أنَّ الأدلة الشرعية -كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ- قسمان: قسم نقلي وقسم عقلي، فالدليل العقلي من الأدلة الشرعية[١]. ثم الدليل الشرعي المعتبر هو خبر العدل الواحد، ومثل الأمر والنهي والعموم والقياس يجب اتباعها إلا أن يقوم دليل أقوىٰ منها يدل علىٰ أن باطنها مخالف لظاهرها، ونظائر هذا كثيرة[٢].

والدليل العقلي مجاله واسع: القياس والاستصحاب والسياسة الشرعية والجمع بين الأدلة وترتيبها، فكل هذا عملية عقلية بحتة، لكن الذي يميز الدليل العقلي الشرعي هو أنه عاضد للنص لا حاكم عليه، تابعٌ له لا منفرد عنه، وعلىٰ هذا النحو ورد الدليل العقلي في القرآن

(١) ينظر: منهاج السنة (١/ ٨).

(٢) ينظر: الصارم المسلول علىٰ شاتم الرسول (ص: ٣٤٤).

والسنة النبوية، فقد قرر القرآن مسائل الاعتقاد والأحكام بما تقبله العقول، وضرب الأمثلة العقلية المفهمة لهذا المعنىٰ عند الناس، واستعمل أقربها للناس وأكثرها تأثيرًا؛ مثل ضربه للمثال بالمطر والجبال والإبل، وتشبيهه لحقيقة الحياة بالمطر النازل من السماء علىٰ الأرض، وبما ينبت من الزرع وسرعة زوالها بزواله.

المظهر الثالث: الجناية بالتأويل:

هذا نموذج صارخ للالتفاف علىٰ النصوص الشرعية من طرف الحداثيين، وهو استخدام تقنية التأويل لإعادة برمجة الشريعة وفق ما تهواه نفوسهم، ويتم التأويل عبر النفخ في مفاهيم معينة لا تتعارض مع الشرع، لكنها ليست أداة لفهمه؛ مثل مفهوم الإعمار والتعلق به، وجعله مقصدًا من مقاصد الشريعة، ويتم استبعاد مفاهيم أخرىٰ أكثر أهمية منه ليحل محلَّها؛ مثل العبودية والاستسلام والعقيدة والإيمان بالغيب، ويتم تعلية المشترك الإنساني علىٰ حساب الخصوصية الثقافية والدينية لدىٰ الأمة، ولا شك أن تضخيم هذا المفهوم وجعله في مقام المقصد والغاية سوف يحوج أصحابه إلىٰ إعادة ترتيب الشريعة من جديد؛ فتأتي المعركة الفاصلة من أجل فهم النص وتنزيله؛ إذ التأويل الوجه الثاني للنص الذي يمثّل آلية من آليات الثقافة لإنتاج المعرفة، وهو عبارة عن توجه قصديٍّ إلىٰ استخراج مغزىٰ النصّ ودلالته، وهو بهذه الصورة يمثل جهدا بشريًّا بحتًا[1].

---

(١) ينظر: مفهوم النص نصر أبو زيد (ص: ٩).

وقد قام نصر أبو زيد في محاولته التبريرية للحدِّ من التصادم بين المفاهيم الغربيَّة والأصول الإسلامية بمحاولة الكلام عن التأويل وسياقه التاريخي، وادعىٰ أن التأويل كان مصطلحًا شائعًا ومقبولا، قبل أن ينسحب تدريجيًّا ويفقد دلالته الحياديّة لصالح التفسير، ويكسب دلالة سلبية(١).

وهذه المشاقة بين اللفظين هي تبرُّع بارد غير مقبول من نصر أبو زيد في قراءته للتاريخ الإسلامي وتفسيره لنشأة المصطلحات؛ إذ التأويل الذي رفض عند السلف ليس مرادفًا للتأويل الذي كان شائعًا من قبل، وجولة سريعة في كتب التفسير القديمة والحديثة تؤكِّد هذا المعنىٰ، لكن هذه المشاقّة يردُّ نصر أبو زيد من خلالها ما أثر عن السلف؛ ليستحدث مفهومًا جديدًا للتأويل يتسنىٰ له من خلاله تفسير النص عبر آليات مستحدثة، يمارس فيها رياضة صنع الأبدان الدينية؛ بعيدًا عن الآليات الشرعية ومقترحاتها الموضوعية التي لا تسمح له بمزيد من التحرك البهلواني في دائرة النصوص، وقد صرَّف الكاتب العبارة في كتبه من أجل تأكيد هذه الجدلية التي يختلقها بين المفاهيم، وبعد أن قرَّر أن التأويل بمعنىٰ التفسير هو الذي كان سائدًا، وأن النموذج السنيَّ في التفسير يكتسي مصداقيته من الاستناد إلىٰ الآثار؛ بَيَّنَ أن هذا النموذج غير مقنع؛ بدليل تصادمه مع العلم، وقدم علىٰ

---

(١) ينظر: الخطاب والتأويل (ص: ١٧٤).

ذلك نموذجا وهو تفسير الرعد بالملَك في قوله ﷻ: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾ [الرعد: ١٣]. وبيَّن أن المفسر المعاصر حين يتشبّث بهذا التفسير يجد نفسه في صدام مع حقائق العلم(١).

وهذه المحاولة الاستهزائية ليست مقصودة لذاتها، وإنما المراد تعميمها وجعل الخطأ منهجًا عامًّا في التفسير بمعناه الأول؛ ليستبدل بعد ذلك بمصطلح جديد هو تعليق معاني النصوص حتىٰ يثبت العلم صدقها، ونبدأ رحلة من التأخر في فهم النص والحذر من معناه، ريثما تترجم لنا كتب الحضارة الغربية العلمية، وننظر فيها، ونتأكد من مدىٰ اتفاق الوحي معها.

وهذا التيه المعرفي الذي يجعل فيه نصر أبو زيد نفسه لا يقدم له حلًّا سوىٰ تبنّي مناهج غيرية في تفسير الوحي؛ لأن مشكلته مع النص تكمن في أن آلياته المتبعة عند العلماء لا تضيِّق دلالة النص، وإنما توسِّعها، لكنها تحجر علىٰ المتلقي أن يثبت المعاني المحددة في نفسه دون الرجوع إلىٰ النص، وقد حذر الحداثيون من بناء عقلية علمية تؤصِّل للحقيقة؛ لما سوف تؤدي إليه من حسم للدلالة وتحديد للمعنىٰ(٢).

---

(١) ينظر: مفهوم النص (ص: ١٤٠).

(٢) ينظر: الفكر الأصولي واستحالة التأصيل، لمحمد أركون (ص: ٧).

وقد حاول الحداثيون دمج الوعي في التفسير للنص الديني، وقصدوا بالوعي تجريبية القراءة، وتقديم الوجود على الماهية، واعتبار اجتماعية القراءة، وضرورة تجاوب النص مع تطلعات الإنسان؛ مما يجعل القراءة ظاهرة اجتماعية وإيديولوجية تزحزح جمود الواقع والعقل الإسلاميَّين، ولدمج الوعي بمجرى النص طريقان في القراءة:

أ- القراءة الأفقية: والتي تُعْنَىٰ بالدلالة والتأويل في بنية النص الديني: الكتاب والسنة.

ب- القراءة العمودية: وهي التي تتبع السند والتراكمات التاريخية والعلاقات العامة السابقة على النص، والتي أسهمت في وجود النص[١].

ويسعى الاتجاه الحداثي من خلال هذه الطرق إلى أن يؤسِّس لمبدأ مساءلة العلوم المعيارية المتعلقة بفهم النص؛ مثل علوم القرآن والأصول؛ ليؤكد بذلك تاريخيَّتها وتاريخيَّة ما أنتجت من مواقف.

هذا مع تأكيدهم على مصادرة الآليات المحتكرة لفهم النص؛ لأن النص الديني يمثل عقبة في ذهن الكثير من المسلمين، وذلك نتيجة تأويل معيّن قد تبلور عبر التاريخ[٢].

---

(١) ينظر: قراءة في القراءة، مجلة الفكر المعاصر، بيروت، عدد: (٤٨-٤٩) (ص: ١٩).

(٢) ينظر: تحديث الفكر الإسلامي، لعبد المجيد الشرفي (ص: ٤٩).

ومن هنا أقاموا نظرية البحث الدلالي القائمة على التعلية من شأن الفهم على حساب المعنى، وقطع النظر عن أي بعد غيبي في التفسير، فالنظرية الفلسفية عند محمد أركون حولت السؤال: كيف يجب أن يكون المعنى حتى أفهمه؟ إلى سؤال جديد: كيف أفهم حتى يكون المعنى؟ وهو تحويل من بنية المعنى إلى بنية الفهم من المعنى المعطى من طرف الله أو من طرف العقل الأول في الفلسفة إلى المعنى المنبثق من الذات(١).

فالتأويل عندهم تَحْيِينٌ للمعنى وجعله أسيرًا لذهنية القارئ والمتلقي؛ ليفهمه وفق معاييره الخاصة، ونفوا أن يكون وجود أي معنى أصلي لأيّ كلمة تنتج عنه المعاني اللاحقة لها(٢). فالمعاني تنتج عبر الأنظمة الفكرية والسياسية والاجتماعية، وليست منبثقة عن النص نفسه ولو كان مقدَّسا(٣).

وهذا التوجه برمته يرنو في حالة المصالحة مع النص إلى أن يجعل التفسير له محصورا في الأبعاد المادية، وذلك ما صرح به بعضهم من تحديد غائية الشريعة من خلال الشعائر وحصرها في تهذيب الأخلاق الاجتماعية، وغاية التشريع سياسة المصالح العامة، ومن هنا يتم استبعاد الخوض في تفاصيل الأوامر والنواهي، وإحلال قضايا النهوض والبناء محلَّها؛ باعتبار أن الأمم نهضت بدون الدخول

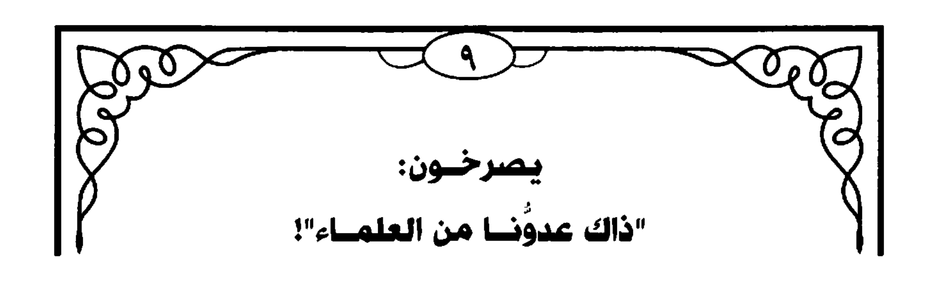
(١) ينظر: نقد العقل الإسلامي عند محمد أركون، لمختار فجاري (ص: ١٤).
(٢) ينظر: الإسلام وأوروبا الغرب، لمحمد أركون (ص: ٢٩).
(٣) ينظر: المرجع نفسه (ص: ٢٤).

في هذه التفاصيل، فهي ليست شرطا في النهوض بالأمم، ويمكن إحلال أي قيم تساعد على النهوض محلَّها، وبطبيعة الحال فقد تراجعت قيمة تفاصيل الوحي لصالح المادية والمدنية، واعتبار الإنجاز الحضاري قيمة مطلقة يشاد بها، بغض النظر عن مدى اتسامها بالدين من عدمه، فضلا عن تحاكمها للوحي ودخوله في تفاصيلها؛ مما قد يعوق سرعتها في النهوض بالأمم على حد النظرة الحداثية العوراء للوحي، وكل هذا هروبا مما يسمونه العقل الديني المعقَّد في كنهه وممارسته ونتائجه، والتعقيد في منظورهم هو الاستجابة بسرعة لما تمليه الحياة المدنية من نفور من التاريخ وصراع مع الدين، ويتواصل البحث إلى ما لا نهاية ليصل إلى استحالة تأصيل العلوم الشرعية أو إمكانية وجود آلية منضبطة تسمح للدين بالتكيف مع الحياة أو إدارتها؛ مما يجعل التخلي عن جزء كبير منه أمرًا مطلوبًا وضرورة عقلية وواقعية، ومحاولة الالتفاف على الباقي مما لا يمكن رده أو تأويله وفق النظرة الحداثية.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين[1].



(١) إعداد: الحضرمي أحمد الطلبة.



٩

يصرخـون:
"ذاك عدوُّنـا من العلمـاء"!

عن أنس رَضِوَلِلَّهُعَنْهُ قال: بلَغ عبدَ الله بنَ سلام مقدَمُ رسول الله ﷺ المدينةَ فأتاه، فقال: إني سائلُك عن ثلاثٍ لا يعلمهنَّ إلا نبيٌّ، قال: ما أوَّل أشراط الساعة؟ وما أوَّل طعام يأكله أهل الجنة؟ ومن أي شيء ينزع الولد إلىٰ أبيه؟ ومن أي شيء ينزع إلىٰ أخواله؟ فقال رسول الله ﷺ: «خبَّرني بهنَّ آنفًا جبريل»، قال: فقال عبد الله: ذاك عدوُّ اليهود من الملائكة[1].

إنَّ معاداةَ الأمناءِ الأخيار والصَّالحين الأبرار سنَّةٌ يهوديَّة قديمة، وهي في مظهرِها تَعزفُ علىٰ وَتَر المظلوميَّة، وتُخرج المجرمَ في صورة الضَّحيَّة؛ قالوا: "جبريل ينزل بالحرب والقتل والعذاب"[2]، ولكنَّها في حقيقتها وجوهرها وسيلةٌ من الوسائل العقيمة التي يتَّخذها أهلُ الباطل لردِّ الحقِّ الذي نقله الأمناء وتأوَّله العلماء.

وإنَّ هذه السنَّةَ اليهوديَّة ماضيةٌ -بتقدير الله تعالىٰ وحكمتِه- إلىٰ يوم القيامة، فلا يزالُ المبطِلون يعادون الحقَّ بمعاداة أهله، والطَّعن فيهم، والتشكيك في علومهم وفهومهم، والسعي لإسقاط هيبتهم

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٣٣٢٩).

(٢) ذكره ابن حجر في الفتح من رواية بكير بن شهاب (٨/ ١٦٦).

ومصداقيّتهم، وليس الغرض من ذلك إلَّا التَّفلُّتَ والتحرُّرَ من الحقِّ الذي بلَّغوه وائتُمنوا عليه.

ولقد أخبر الصَّادق المصدوق ﷺ أنَّ هذه الأمة سيحصل فيها مثلُ ما حصل في الأمم السابقة، فقال ﷺ: «لتتبعُنَّ سننَ مَن قبلكم، شبرًا بشبر، وذراعًا بذراع، حتَّىٰ لو سلكوا جُحر ضبٍّ لسلكتموه»، قالوا: يا رسول الله، اليهود والنصارىٰ؟ قال: «فمن؟!»[1].

فظهرت هذه السنَّةَ اليهوديَّة الوخيمة في وقتٍ مبكِّر من تاريخ الإسلام، وأوَّلَ ما ظهرت بشكل واضحٍ فاضحٍ كان في معاداة الروافض للصحابة الكرام -رضي الله عنهم- الذين ترجموا الإسلام ونقلوه إلىٰ سائر الأنام، وقد حشدوا لهذه المعاداة جيوشًا عظيمة من الزور والبهتان، وجمعوا لها كتائبَ من الأخبار المختلقة الكاذبَة؛ عازفين علىٰ أوتار المظلوميَّة، وزاعمين الانتصارَ للمظلوم من الظالم، ولم يكن الغرض من ذلك في حقيقة الأمر إلَّا الانعتاق من فهوم الصحابة الكرام للوحيين، ثم الانطلاق في بحار التأويلات البدعية التي لا ساحل لها يُرسَىٰ إليه، ولا قَعر يُنتهىٰ إليه.

ولأجل هذا قال الإمام مالك رحمه الله: "إنما هؤلاء قوم أرادوا القدح في النَّبيِّ ﷺ، فلم يمكنهم ذلك، فقدحوا في أصحابه حتىٰ يقال: رجل سوء كان له أصحاب سوء، ولو كان رجلًا صالحًا كان أصحابه

(١) أخرجه البخاريُّ (٣٤٥٦)، ومسلم (٢٦٦٩)، من حديث أبي سعيد الخدريِّ رضي الله عنه.

صالحين"[١]، وقال أبو زرعة الرازيُّ رَحِمَهُ اللهُ: "إذا رأيتَ الرَّجل ينتقص أحدًا من أصحاب رسول الله ﷺ فاعلم أنَّه زنديقٌ؛ وذلك أنَّ الرسول ﷺ عندنا حقٌ، والقرآن حقٌّ، وإنَّما أدىٰ إلينا هذا القرآنَ والسُّنن أصحاب رسول الله ﷺ، وإنما يريدون أن يجرحوا شهودَنا ليبطلوا الكتابَ والسنَّة، والجرح بهم أولىٰ، وهم زنادقة"[٢].

ولما كان علماء الإسلام والأئمَّة الأعلام هم الوارث الشرعيُّ للصحابة الكرام رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ كان لهم نصيبٌ وافر مما نال الصحابةَ الكرام من التهويش والتشويش والتهميش، فركبَ هذه السُّنَّة الوبيلةَ بعضُ أهل البدع من الجهميَّة والمعتزلة وغيرهم، ونصبوا العداء لأئمَّةِ الإسلام، فهذا عمرو بن عبيد يوصي أصحابَه بالاستماع لخَتَنِه واصل بن عطاء، ويُزري بأئمَّة الدين وأعلامه، فيقول: "اسمعوا؛ فما كلام الحسن وابن سيرين والنخعيِّ والشعبيِّ عندمَا تسمعون إلَّا خِرَقُ حَيضٍ مَطروحة"[٣]، وآخَرُ من زعماء أهل البدعة كان يريد تفضيلَ علم الكلام علىٰ الفقهِ، فكان يقول علىٰ سبيل الاستصغار والاحتقار: "إنَّ علم الشَّافعيِّ وأبي حنيفة جُملتُه لا يخرج من سراويل امرأةٍ"[٤].

---

(١) ينظر: الصَّارم المسلول، لابن تيمية (ص: ٥٨٠).
(٢) ينظر: الكفاية، للخطيب البغدادي (١/ ١٧٥).
(٣) ينظر: الضعفاء، للعقيليِّ (٣/ ٢٨٥).
(٤) ينظر: الاعتصام، للشاطبيِّ (٢/ ٢٣٩).

ويا لله العجب! كيف لم يقتصِر أتباعُ أهل الأهواء للسنن الماضية علىٰ المقاصد فقط، بل اتَّبعوهم أيضًا في الأساليب والوسائل، فعن سلمان الفارسيِّ رضي الله عنه قال: قيل له: قد علَّمكم نبيُّكم ﷺ كلَّ شيء حتىٰ الخراءة! قال: فقال: أجل، لقد نهانا أن نستقبل القبلة لغائط أو بول، أو أن نستنجي باليمين، أو أن نستنجي بأقل من ثلاثة أحجار، أو أن نستنجي برجيع أو بعظم[١].

ولا تزال هذه السنةُ اليهودية معولَ هدم في صرح أمة الإسلام إلىٰ يوم الناس هذا، فأهل الباطل في زماننا ينصبون العداء لحُماة الدين وحملة الشريعة، بلسان الحال تارات، بل وبلسان المقال الصريح ولحن القول المليح، ويتذرَّعون بذلك للطعن في الإسلام ونقض عراه عروةً عروةً؛ يهيِّجون علىٰ دين الإسلام الحاقدين، ويشفون صدور الحاسدين، ويُضحكون منه الملحدين، ويُسلفون فيه الشُّبهَ لإنتاج المرتدِّين.

ماذا نقموا من الشافعي؟

إن العالم الذي أزعجهم وأقضَّ مضجعهم وهيَّج مَجمعهم في هذا الزمان هو الإمام الشافعي رضي الله عنه، مَن جال في ميادين العلم جواده، وصلُبت في دين الله أعواده وأوتاده، وكثر في الحق زاده وعتاده، فناصبوه العداء بلا استحياء، وقالوا بلسان واحد: "ذاك عدوُّنا من العلماء"، ووجَّهوا إليه سهام النقد والثَّلب؛ مشكِّكين في فكره ونهجه،

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٢).

وطاعنين في شخصه وقصده[١].

يقول نصر أبو زيد عن موقف الشافعيِّ في دفاعه عن لغة القرآن: "الحقيقة أنَّ هذا الموقف لا يخلو من انحياز أيديولوجيٍّ للقرشية التي أطلَّت برأسها أول ما أطلَّت -بعد نزول الوحي- في الخلاف حول قيادة الأمة في اجتماع السَّقيفة، ولا نغالي إذا قلنا: إنَّ تثبيت قراءة النص -الذي نزل متعدِّدًا- في قراءة قريش كان جزءًا من التوجيه الأيديولوجيِّ للإسلام لتحقيق السيادة القرشيَّة، وفيما يتَّصل بمذهب الشافعيِّ فإنَّه لا يتركنا للتخمين، بل يعبِّر عن انحيازه للقرشية بطرائق متعدِّدة"[٢]، ويقول أيضًا: "أهمُّ صور التعبير عن انحياز الشافعي للقرشية أنه الفقيه الوحيد من فقهاء عصره الذي تعاون مع السلطة السياسية مختارًا راضيًا، خاصة بعد وفاة أستاذه الإمام مالك بن أنس"[٣].

وما نقموا من الإمام الشَّافعي -في حقيقة الأمر- إلا أنه كبَّل ألسنتَهم وأطَرَ أفئدتهم، وأقام البرهان علىٰ ضرورة لزوم اللسان العربي المعبِّر عن الفكر، وضرورة ضبط الفكر بآليات التفكير والاستدلال والاستنباط الصحيحة السليمة، فإذا تمَّ ذلك لم يبق إلا صورة اللحم والدم.

لسان الفتىٰ نصف ونصف فؤاده ... فلم يبق إلا صورة اللحم والدم

(١) ينظر بتوسع "موقف الاتجاه الحداثي من الإمام الشافعي، عرض ونقد"، د. أحمد قوشتي عبد الرحيم. ومقال علىٰ الشبكة بعنوان: الإمام الشافعي لماذا يحقدون عليه، لأسامة شحادة.

(٢) الإمام الشافعي وتأسيس الأيديلوجية الوسطية (ص: ٦٢).

(٣) الإمام الشافعي وتأسيس الأيديلوجية الوسطية (ص: ٦٢-٦٣).

فبيَّن رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن الله جل ثناؤه مَنَّ على العباد بعقول، فدلهم بها على الفَرْق بين المختلف، وهداهم السبيل إلى الحق نصًّا ودلالةً، فنصب لهم الحقَّ وأمرهم بقصده إذا ظهر لهم وعاينوه، وبتوخّيه وتحرّيه إذا خفي عنهم، وجعل لهم علامات ودلائل يهتدون بها إلى الحق بما خلق لهم من العقول التي رَكَّبها فيهم[١].

والمقصود أن المنهج الرباني امتاز بتحديد الهدف والغاية، وتسطير الطريق والوسيلة، بينما أهل الباطل من الحداثيين وغيرهم يريدون الانفلات من أيِّ سلطة، فسعوا لتحرير العقل من هداية الوحي، وتحرير الألفاظ من رعاية اللغة وقواعدها وضوابطها، فخرجوا إلى العدمية بفَقدِ الهدف، وإلى العبثية بفَقدِ الوسيلة.

والغرض من ذلك كله هو فكُّ الارتباط بتراث الأمة وتاريخها، وفتح صفحة جديدة، وإعادة تنسيق الإسلام تنسيقًا يتناسب مع الأهواء ويلبِّي مطامع الأعداء.

وإنَّ من أعظم مطامعهم تحويلَ الإيديولوجية لدى المسلمين من المرجعية الدينية الربانية، إلى المرجعية الدنيوية الإنسانية، سواء كانت جمعويَّةً؛ الحقُّ فيها هو ما تقرره الأغلبيَّة، أو سلطويةً؛ الحقُّ فيها هو ما تقرِّره القوة، أو نخبويةً؛ الحقُّ فيها ما تقرِّره النخبة -سواء كانت عقلانية أو مادية تجريبية أو أخلاقية روحانية-.

---

(١) ينظر: الرسالة، للشافعي (ص: ٥٠١) في باب الاجتهاد.

وهذا ما يؤكّده كمال أبو ديب بقوله: "الحداثة انقطاع معرفي؛ ذلك أن مصادرها المعرفية لا تكمن في المصادر المعرفية للتراث: في اللغة المؤسساتية، والفكر الديني، وكون الله مركز الوجود... الحداثة انقطاع؛ لأن مصادرها المعرفية هي: اللغة البكر، والفكر العلماني، وكون الإنسان مركز الوجود"(١).

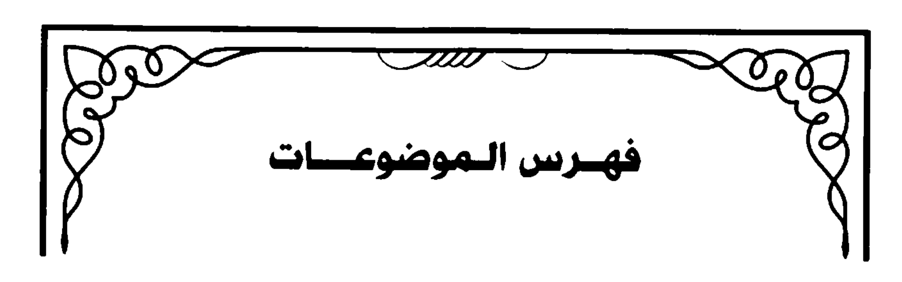
فرحم الله الإمام الشافعيّ، فقد كان بحقٍّ شافي عِيّ، أصابَ كبد الحقّ فهمُه، ورشق رميَّة الشبهة سهمُه، ولا تزال أنوارُ حججه تسطع، وأسنَّة براهينه تقطع، حتىٰ ضاق به أهل الباطل ذرعًا، وحاروا معه صُنعًا، فراحوا يرمونه بالتُّهم تعكيرًا، ويقذفونه بالمين تنفيرًا، وعادَوه في البيان والتأويل، كما عادىٰ اليهود جبريلَ في البلاغ والتنزيل، والله غالب علىٰ أمره، ولكن أكثر الناس لا يعلمون(٢).



---

(١) الحداثة السلطة النص، مجلة فصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مجلد ٤، العدد ٣، ١٩٨٤م، (ص: ٣٧).

(٢) إعداد: د. مصطفىٰ سعيد.



فهرس الموضوعات

الموضوعات | الصفحة

المقدمة ٥

(١) الظاهرة الشحرورية في التاريخ الإسلامي المنطلقات والمآلات ٧

التاريخ الشحروري ٩

أساتذة شحرور ٩

نهايات الشحرورية ١٤

الفكر الباطن: أستاذ آخر لشحرور ٢١

(٢) شحرور مُفسدًا لا مُفسّرًا ٢٦

من محمد شحرور؟ وما مكانته في علم التفسير؟ ٣١

منهج محمد شحرور في التفسير ٣٣

انحرافات محمد شحرور في التفسير، ولنا معه عدة وقفات ٣٥

تقسيمه آيات القرآن إلىٰ ثلاثة أقسام، والغرض من ذلك ٣٥

إخضاع القرآن للتأويل ٣٩

موقفه من تفاسير السلف ٤٣

قوله بتاريخية القرآن ٤٥

اعتماده علىٰ اللغة في التفسير ٤٨

(٣) تفسير السلف للقرآن الكريم أهميته وخصائصه ٥٢

أهمية تفسير السلف ٥٤

أهم خصائص تفسير السلف ٥٥

قُرْب السَّلف من عصر النبوة ٥٥

معاينة الصحابة لكثير من الوقائع ومعايشتهم لكثير من الأحداث التي نزل فيها القرآن........ ٥٧
معرفتهم بلغة العرب وأساليبها........ ٥٧
الوفاق العقدي والسلامة من اتباع الهوىٰ والتعصبات المذهبية ٥٨
قلة الخطأ في تفسيرهم وندرته........ ٥٩
(٤) فبأيِّ فهمٍ يُؤمِنُون؟ مُناقشة لإمكانيّة الاستِغناء باللُّغة عَن فَهمِ الصَّحابة ٦٠
المقَـدّمَـة........ ٦٠
حال السَّلف مع فهم الصَّحابة رضي الله عنهم........ ٦١
هل يمكننا الاستغناء بأهل اللغة عن فهم الصَّحابة؟........ ٦٥
أفغير هذين الطَّريقين من طريق؟!........ ٧١
(٥) التقسيم المنكَر لسُنة سيِّد البشر-سنة النبوة وسنة الرسالة!!-........ ٧٦
التعريف المختار للسُّنة لدىٰ شحرور........ ٧٨
تقسيم محمد شحرور للسنة وبيان العوار فيها........ ٨٢
الحد الأدنىٰ والحد الأعلىٰ في نظر شحرور........ ٨٤
الحدود فيما يتعلق بالصلاة........ ٨٥
الحدود في لباس المرأة........ ٨٥
الحدود فيما يتعلق بعلاقة الرجل بالمرأة........ ٨٦
الرد علىٰ هذا التقسيم........ ٨٩
(٦) سمومٌ استشراقية وسُبُل مواجهتها........ ٩٥
إصدار نتائج غير صحيحة علىٰ وقائع صحيحة........ ٩٥
تبنيهم دعوىٰ الاستفادة........ ٩٦
العلمانية والمادية........ ٩٧
(٧) مكر المستشرقين في ترجمة الكتاب المبين!!........ ١٠١
تراجم معاني القرآن في العالم الغربي........ ١٠٣

اتجاه الغرب النصراني للاستشراق................ ١٠٥
مرحلة العداء السافر للإسلام................ ١٠٧
ترجمة روبرت (١١٤٣ م)................ ١٠٧
ترجمة دي ريار (١٦٤٧م) ١٠٩
ترجمة القس (لودفيجو مراتشي) إلىٰ اللاتينية (١٦٩٨ م)................ ١١٠
ترجمة جورج سيل إلىٰ الإنجليزية (١٧٣٤م) ١١١
مرحلة الأهداف غير المعلنة................ ١١٥
ترجمة رودويل (١٨٦٤م) ١١٥
ترجمة بالمر(١٨٨٠م)................ ١١٨
ترجمة القسيس وهيري (١٨٩٤م) ١١٨
ترجمة ريتشارد بل (١٩٣٧م)................ ١٢٠
ترجمة آرثر آربري (١٩٦٤م)................ ١٢١
السِّمات العامة لترجمات المستشرقين ١٢٤
(٨) نماذج من الالتفاف على النصوص الشرعية عند الحداثيين ١٢٧
علاقة النص بالمصلحة ١٢٨
الموقف من النص ١٣٣
التشكيك في مدىٰ قدرة النص علىٰ إصلاح الحياة................ ١٣٣
الانقلاب علىٰ المعايير................ ١٣٨
الجناية بالتأويل................ ١٤٣
(٩) يصرخـون: "ذاك عدوُّنـا من العلمـاء"!................ ١٤٩
ماذا نقموا من الشافعي؟................ ١٥٢
فهـرس الموضوعـات ١٥٧